الغوطة (١)

جزئيات المحاضرة

(١) الغوطة وحدودها (٢) بساتينها وقراها (٣) الأبنية الأزلية فيها (٤) ميزانها
(٥) سكانها ولسانهم وأديانهم (٦) اثمارها وزروعها (٧) أنهارها وريها
(٨) مدنيتها (٩) صناعاتها الزراعية (١٠) متنزهاتها (١١) أدبها

سبق لي مساء اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط الماضي (١٩٤١) أن حدثت المستمعين الى مذياع (راديو) الشرق في بيروت ببعض ما عرفت عن غوطة دمشق، والآن أريد أن أتوسع في هذا الموضوع اللذيذ المفيد بأطول مما كنت تحدثت، وأتوخى أن آتيكم بما عرفته من طريق الدرس والتجارب الشخصية.

الغوطة وحدودها

اشتق اسم الغوطة من الغائط، والغائط المطمئن من الأرض، والجمع غيطان وأغواط، وقال ابن الأعرابي: الغوطة مجمع النبات. وورد اسم الغوطة بلفظ التثنية في الشعر القديم والحديث قال ابو المطاع بن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استحفني ... الى بردى والنيربين حنين

والنيربان واحدهما النيرب، وهي قرية كانت على نصف فرسخ من دمشق قال ياقوت: إنها أنزه موضع رآه. وفي مراصد الاطلاع: (إن النيرب قد جاء في الشعر مثنى) فلعل ياقوت فهم منه أن هناك موضعاً آخر وليس كذلك. فان الشاعر قد ثنى الغوطتين وليس إلا غوطة، كما ثنوا الغيضتين قال ابن منير:

سقاها وروّى من النيربين ... الى الغيضتين وحمورية

---

(١) محاضرة القاها الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي في السادس والثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ «٢ و ٩ ايار سنة ١٩٤١» في ردهة المحاضرات.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى بيت لهيا الى برزة دلاح[1] مكفكفة الأوعية

وللنيرب اليوم يقال أرض النيرب وهي في جوار قرية المزّة . والغوطتان على ما يظهر هما الغوطة الغربية والغوطه الشرقية . وقال بعضهم الغوطتان الغوطة الشمالية والغوطة الجنوبية أو القبلية .

وقيل انه كان يطلق على الغوطة اسم (البريص) وقد ورد في شعر حسان بن ثابت يمدح بني غسان بقوله :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية المعُم المخول

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يُصفق بالرحيق السلسل

قال ياقوت : وهذا يدل على أن البريص اسم الغوطة بأجمعها ، ألا تراه نسب الأنهار الى البريص ، وقال يسقون ماء بردى ، وهو نهر دمشق ، من ورد البريص . ورواية البلاذري في فتوح البلدان أن أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يوم فتح دمشق التقيا بالمقسلاط وهو موضع النحاسين وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول : يسقون من ورد البريص عليهم . البيت — لا تعطي العبارة أن البريص هو بردى بل يفهم منها أنه مكان آخر .

لم يحدد القدماء الغوطة ، ولم يعرفوها التعريف المطلوب . فقال المقدسي : إن مساحتها مرحلة في مثلها . وقال القزويني : إن طولها مرحلتان في عرض مرحلة . وقال ياقوت : إن استدارتها ثمانية عشر ميلاً . وقال شيخ الربوة : إنها من حيز دمشق ناحية يكون طولها ثلاثين ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلا[2] . وقال ابن

(١) سحابة دلاح كثيرة الماء : ج دُلح (٢) المرحلة مسيرة يوم على الراكب بالسير المعتدل والميل مئة الف اصبع إلا اربعة آلاف اصبع ، او ثلاثة او أربعة آلاف ذراع ، بحسب اختلافهم في الفرسخ هل هو تسعة آلاف بذراع القدماء ، او اثنا عشر الف ذراع بذراع المحدثين . وعرفوا الفرسخ أنه ثلاثة أميال هاشمية أو اثنا عشر الف ذراع أو عشرة آلاف . والذراع أيضاً يختلف باختلاف الأقطار والأعصار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طولون الصالحي في كتابه (ضرب الحوطة على جميع الغوطة) إن قرية زبدين آخر حدودها ، وهو صحيح ، ولم يذكر حدها من الشرق والغرب . وزعم أن (حران العواميد) من الغوطة وهي من قرى المرج ، وبينها وبين الغوطة أربع ساعات على الراكب ، وهكذا عدّها ياقوت وهو غير صواب . وذكر البكري في (معجم ما استعجم) ان قرية دمر من الغوطة وعدّ الدوّ من الغوطة وقال انها تلقاء البضيع [١] .

والظاهر أن القدماء قدروا الغوطة على هذه الصورة بحسب ما رآها كل واحد في عصره ، وكانت تتسع وتنقبض تبعاً للكائنات الأرضية والسماوية . وقد قال صديقنا العلامة الأثري دوسو [٢] إن الغوطة تطلق على الصقع الذي يُروى حول دمشق بين الجبل والبحيرتين (بُحيرة المرج وبحيرة الهيجانة) حيث تنصب فضلات الأنهار ، وأن الغوطة الآن اذا أُطلقت يراد بها الكورة التي فيها الحدائق والبساتين أي أن المرج غير داخل في الغوطة . وقال بعض القدماء إن الشام الثالثة الغوطة ، ومدينتها العظمى دمشق . وقال مرتين إن الغور الشرقي يكون سهل دمشق الذي يمتد من أقبال [٣] الجبل الشرقي الى بادية الشام أو بادية تدمر ، فعند تخوم هذه البادية غوطة أريضة من أجل ما أحدثت يد الطبيعة تشقها الأنهار

(١) كذا البضيع مصغراً ويروى بالفتح في شعر حسان بن ثابت .

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل

والبصيع بالصاد المهملة وقال إنه جبل بالشام أسود . وجبل البضيع يعني جبل الكسوة المشرف على الغوطة . هذا ما قاله ياقوت . وروي في التاج عن الازهري أنه رأى جبل البصيع وقال انه جبل قصير أسود بأرض البلينة فيما بين تسيل وذات الصنمين بالشام من كورة دمشق . وفي وسط الكسوة جبل يناوح جبل المانع اسمه المضيع (بالميم والضاد والياء المشددة) ولعله هو الاقرب الى الصواب . والبصيع أو البضيع هو ذاك الجبل الذي يقع في أول حوران

(٢) في كتابه طوبوغرافية تاريخية لسورية في الأدوار القديمة وفي القرون الوسطى .

Dussaud : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale .

(٣) الأقبال جمع قبل والقبل اللثز من الأرض أو رأس كل أكمة وجبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكثيرة ، وتكسوها الخضرة ، ويغشيها النبات الغض الموفور ، عرضها نحو ستين كيلو متراً ، وليس لهذا النجد البهيج من العلو الا ٧٣٠ متراً عن مساواة البحر . وقوله ان عرضها ستون كيلومتراً فيه نظر ، ولعله يريد طولها ولا يمكن أن يكون طولها كذلك إلا إذا تجوزنا وأدخلنا فيها المرج .

ويستنتج من كتب الجغرافيا والتاريخ ودواوين الشعراء وأرباب الرحلات ومصطلح القوم لعهدنا أن الغوطة هي كل ما أحاط بدمشق من قرى شجراء ، وكان من الأرض المطمئنة التي تُروى من نهر بردى ، وما اشتق منه من الجداول والأنهار الصغيرة ، وعلى هذا فحدُّ الغوطة يبدأ غرباً من فُوَّهة وادي الربوة فالمزة فداريا وينتهي بالجنوب بصحنايا والأشرفية وسبينة وسبينات وحوش الريحانية . ومن الشرق بالريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش الأشعري وحوش المتبن وحوش خرابو والفضالية والنشابية وبيت نايم ، وينتهي في الشمال بجبلي قاسيون وسنير ، وسنير هو جبل قلمون ، ويسمونه لهذا العهد أيضاً جبل الحلو ، وهو فرع من فروع لبنان الشرقي *Anti-Liban* ويشرف الجبل الأسود على الغوطة من الجنوب ، ومن الشرق أرض المرج ، وهو اقليم متسع تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف الغوطة وهو أيضاً في نجد منخفض من الأرض ، وأشجاره قليلة ، وهو خاص بزراعة الحبوب في الشتاء والذرة في الصيف .

ويقدر طول الغوطة بنحو عشرين كيلو متراً وعرضها يختلف بين ١٠ و١٥ كيلو متراً تقريباً . وقد تمت مساحتها في العهد الأخير فبلغت (٤٠٦٠٠) هكتار أي نحو خمسة وستين ألف فدان ، والفدان ستة دونمات وكسر ، والدونم مبذر مدّ من الحنطة ، والفدان ٥٧١٣ متراً مربعاً والدونم ٩١٩ متراً مربعاً . وتدخل مدينة دمشق في هذه المساحة .

بساتين الغوطة وقراها

يقول ابن شداد : إن الغوطة تشتمل على خمسة آلاف بستان وثلاثمائة وخمسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأربعين بستاناً وعلى خمسمائة وخمسين كرماً . وقال شيخ الربوة من أهل القرن الثامن إن بساتين دمشق مائة واحد وعشرون الف بستان تسقى بماء واحد . وقال كاتب چلبي من أهل القرن الحادي عشر في كتابه « جيانما » : ان في الغوطة مائة وثلاثين ألف بستان . وقال ابن إياس إنها بساتين كلها . وهذا الوصف الأخير أقرب الى الحقيقة ويصدق عليها في العهد الأخير خاصة ، وذلك بعد أن عرف الغوطيون فائدة الأشجار ، وأخذت ثمراتها تصدر الى القاصية والدانية من البلاد . وفي كل سنة تزيد بساتين دمشق مئات ، ولا يستبعد أن تبطل بعد نصف قرن معظم زراعة الحبوب من الغوطة ويستعاض عنها بالأشجار المثمرة وغير المثمرة .

حدّث أحد الشيوخ أنه كان في طفوليته اذا وقف مع أهله أمام قبة سيدي أبيّ ، على مقربة من سور البلد في الجنوب ، يرى قريتي جرمانا والمنيحة من بعيد ، وذلك لأن هذه الحدائق التي نراها اليوم تحجب النظر ان يسرح مئة متر ، كانت خالية من الشجر ، وقد غدت اليوم غابات غبياء ، وأدرك الجيل الذي قبلنا أن قريتي الحديثة وبالا كانتا كقرى المرج ، تزرعان الحبوب والخيار والقنب فقط وأشجارهما قليلة جداً وربما عدتا من المرج وهما اليوم من أكثر قرى الغوطة شجراً مختلفاً أنواعه .

ويقول الظاهري في زبدة كشف الممالك ، وهو من أهل القرن العاشر : وقيل إن في اقليم الغوطة ثلاثمائة قرية ونيفاً وبها مدن صغار وبلدان تشابه المدن . وقوله هذا دليل على أن الغوطة كانت عامرة جداً على عهد المماليك وأصابها الخراب زمن الترك العثمانيين ، ولا سيما في القرنين الأخيرين من حكمهم ، فخرب معظم قراها ، وانضمت أرضها الى القرى المجاورة ، وقلّ سكانها ، واضمحلّ عمرانها ، وما يشاهد من الدِّمن والتلال في أرجائها أصدق شاهد على ذلك ، وما كان السبب الأول في خرابها غير توالي الأوبئة والطواعين والزلازل والمجاعات وتتابع غارات البادية على المعمور ، واعتداءات جيش الدولة على المستضعفين . على أن قول الظاهري : انه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان في الغوطة اكثر من ثلاثمائة قرية لا يخلو من مبالغة ولو ضممنا الى الغوطة المرجين ما بلغت قراها هذا المقدار .

وذكر ابن طولون الصالحي في القرن العاشر أن بالغوطة سبعين قرية وبعضها الآن دارس . وقرى الغوطة اليوم ثنتان وأربعون قرية ، وأهمها من حيث وفرة السكان (دومة) حاضرة الغوطة الشمالية و (داريا) حاضرة الغوطة الجنوبية . ويزيد سكان دومة على ثمانية عشر ألفاً وسكان داريا على اثنى عشر ألفاً ، وكل من قربتي (عربيل) و (جوبر) لا يقل عن ثمانية آلاف ، وكل من (حرستا) (وكفرسوسية) و (المزّة) لا يقل عن ستة آلاف . أما سائر القرى فيختلف سكانها من بضع عشرات من الأنفس كالحديثة وبالا والافتريس الى بضع مئات ، ومنها ما يبلغ الألف والألفين أو الثلاثة أو الأربعة كحمورية و كفربطنا وجسرين والمنيحة (المليحة) وجرمانا وصحنايا وسقبا وزملكا .

وإليك أسماء قرى الغوطة بأجمعها : دومة ، داريا ، عربيل (عربين) جوبر ، حرستا ، كفرسوسية ، المزّة ، مسرابا ، مديرة ، بيت سوا ، المحمدية ، حمورية ، كفربطنا ، جسرين ، الافتريس ، حزّة ، زملكا ، عين ثرماء (عين ترما) ، القابون ، برزة ، الحديثة (حديثة الجرش) المنيحة (المليحة) بالا (القديمة والجديدة) زبدين ، البلاط ، الخيارة (خيارة نوفل) ، عقربا ، جرمانا ، دير مجدل ، قبر الست ، سبينة ، سبينات ، حوش الريحانية ، حجيرة ، بيت سحم ، ببيلا ، يلدا ، القدم ، الأشرفية صحنايا ، البويضة ، بلاس . واذا جمعت أيضاً هذه البساتين المحيطة بدمشق مثل بساتين الصالحية والربوة والمزّة وباب السريجة والقنوات والميدان والشاغور والعنابة تألف منها بضع قرى .

ومن القرى التي كانت على أبواب دمشق فدخلت فيها عندما توسعت الى ماوراء السور : الصالحية والعقيبة وميدان الحصا والصفوانية ، وتحرف اسم هذه اليوم فيقال لها الصوفانية ، ذكر ياقوت أن الصفوانية من نواحي دمشق خارج باب توماء من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقليم حرلان ، وان توماء اسم قرية ، واليها ينسب باب توماء ، بالهمزة في آخرها ومنه اسم توماء لا توما . وذكر أيضاً قينية وقال إنها كانت مقابل الباب الصغير وقال (الحميريون) محلة بظاهر دمشق على القنوات وكانت على طريق كفرسوسية ومثلها اللؤلؤة محلة كانت خارج باب الجابية ، و (طرميس) من قرى دمشق و (الأوزاع) موضع مشهور بربضها سكنه في صدر الاسلام بقايا من قبائل شتى ، واليهم ينسب الامام الأوزاعي دفين بيروت . ومن القرى الداثرة في الغوطة المصيصة كانت شرقي بيت لهيا ، وعالية وعويلية عند القطائع ذكرهما ابن جبير في رحلته بالعين المعجمة (بالغين) وهما موضعان قرب مسجد الأقدام على ميلين من مدينة دمشق . وذكر ابن طولون الصالحي قرية (برنابا) وقال إنها خراب فوق سقبا . وقال ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق إن أراضي (فذايا) و (حلفبلتا) و (الخامسين) مصاقبة للبلد وهذه الثلاث دثرت وكذلك « راوية » وكان بها قبر أم كلثوم وقبر مدرك بن زياد الفزاري الصحابي . وفذايا في جنوبي مقبرة اليهود . وقد وردت أسماء بعض قرى الغوطة في شعر حسان بن ثابت قبل الاسلام عندما مدح آل جفنة قال :

لمن الدار أقفرت بمعان ... بين شاطي اليرموك فالصمان
فالقريات من بلاس فدار ... يا فسكاء فالقصور الدواني
فنقا (جاسم) فأودية (الصفـ ... ـر) مغنى قبائل وهجان
ذاك مغنى لآل جفنة في الده ... ـر وحقاً تعاقب الأزمان
ثكلت أمهم وقد ثكلتهم ... يوم حلوا بحارث الجولان

وبلاس وداريا من قرى الغوطة وسكاء بينها وبين دمشق كما يقول ياقوت أربعة أميال في الغوطة ، والصحيح أنها ليست منها وهي موجودة اليوم . وقد أضاف صاحب معجم البلدان الى الغوطة قرى ليست منها مثل دير أبان قال انها قرب قرحتا وهذه قرية معروفة تعد مرجية ، ومثلها عذراء ، والنمرانية ناحية الوادي وذكر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حرلان وتلفيانا وسام والقوينصة والقصرين ، عاداً لها من الغوطة وكل ذلك داثر لعهدنا . ومن قراها (جَدَيا) كانوا يسمونها على عهد ياقوت جدْيا ولا يعرف أين مكانها . ومن القرى ما كان صغيراً منذ قرون فعظم واتسع مثل جسرين كانت بلدة كبيرة فأصبحت اليوم متوسطة ، ومنها ما كان كبيراً فصغر مثل البويضة وزملكا وبلاس وعقربا .

وكان في بعض قرى الغوطة اسماء تبدأ بكفر والكفر القرية بالسريانية ، ولم يبق منها الآن سوى كفرسوسية وكفربطنا . وأسماء بعض القرى سريانية محضة مثل برزة — بيت الأرز . جرمانا — عظمي . جسرين — جسور . حجيرة — عُرج . حرجلة — جراد . حرستا — خشنة . حزّة . حُفر . داريا — دُور . زملكا — رواق الملك ومصيفه . سبينة — مبتاعون . سقبا — شيخ . شفونية — أرض للزرع . عربيل — غربال . قابون — عمود . كفربطنا — قرية الجنين . مديرة — طبقات البناء . مسرابا — مشرب . بلدا — ولد . ومن أسمائها ما هو من أصل عربي مثل المنيحة ، المحمدية ، التدم ، عين ثرماء ، الحديثة ، الأشرفية ، البويضة ، الخيارة ، البلاط .

ومن قراها ما كان يبدأ بفندق أو قصر أو طيرة أو بيت ، مثل فندق بني عبد المطلب ، وفندق الراهب ، وقصر اللبان ، وقصر بيت لهيا ، وقصر بني عمر ، وقصر حجاج ظاهر باب الجابية . قال زين الأمناء ابن عباد : بدمشق عدة قرى يقال لكل واحدة منها طيرة بني فلان ، والنسبة اليها طيري . ومثل بيت الآبار كانت كورة من غوطة دمشق فيها عدة قرى في رواية ياقوت . وكانت هي وداعية والحارثية معروفة الى القرن التاسع . وذكر ياقوت أيضاً في الغوطة بيت أرانس وبيت البلاط وبيت سابا وبيت قوفا وبيت لهيا ، وتعدُّ زملكا من اقليم بيت لهيا . وكانت بيت لهيا في عهد القرماني من أهل القرن الحادي عشر خراباً ليس فيها دار ولا آثار ، وداعية كانت قرية بين حمورية وبيت سوا ؛ وكانت كفربطنا من اقليم داعية ، واليها ينسب نهر الداعياني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي الغوطة اليوم أنهر تنسب لإحدى القرى ، دثرت القرية وبقي اسم نهرها ، مثل قناة دير بشر المارة بحوش بلاس ، تنسب الى بشر بن مروان الأموي ، ومثل قناة بيت أرانس ، وكان في بيت أرانس قبر مَرْثد دثار بن الحصين من الصحابة والقناة تمر بأرض الشاغور ولا أثر لبيت أرانس ، ومنها نهر حُردان ، ونهر حردان نسبة لقرية كانت فوق قرية سقبا بقي اسم نهرها الى اليوم فقط ، هكذا يلفظونه . والحرلان كما وصفها علماء تقويم البلدان ناحية بالغوطة فيها عدة قرى وبها قوم من أشراف بني أمية ولعلها حردان بعينها .

ويؤخذ من منشور صادر عن نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٦٩ أن حي الميدان والشاغور والمزاز وقبر عاتكة والشويكة والقنوات وسوق صاروجا والعقيبة والعمارة وغيرها من الأحياء الخارجة عن السور كانت في القرن السادس مزارع ومصايف وحدائق ومتنزهات وهي اليوم من أحياء العاصمة . وروى ابن عساكر عن مضر بن العلاء أنه كان يعرف من زقاق فذايا الى قرية تعرف بواسط في الغوطة حوانيت ومنازل . وحكى عن شيوخه أنهم قالوا إن العمران يتصل بهذا حتى يصير سوق القمح في قرحتا (وقرحتا على ساعتين من دمشق) . وقال محمد بن أبي العلاء إنه كان على نهر يزيد رواشن مشرفة عليه ، وكان أكثرها ظاهر البلد منازل للقبائل وقرى متصلة وأسس متقاربة ، فخرب ذلك في الفتن والحروب والحصارات ، وتمادى عليها الخراب الى عهده . وذكر من منازلها القبلية فندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب والراهب قبلي المصلى عن يسار المار قبلي المسجد الجديد بعد مسجد فلوس ومحلة السفليين عند المسجد الجديد والشمامسة عند المسجد القديم وعالية وعويلة قبلي مسجد القدم ، والقطائع يقال لها ريح حوران قبلي الشاغور وغير ذلك ، واما ما كان شمالي البلد فسطرا والفراديس والأوزاع والصدف ومقرا وشعبان وحرج الأشعريين وغير ذلك . ومن الغرب لؤلؤة الكبيرة ولؤلؤة الصغيرة وقينية وصنعاء والحميريين ومنازل بني رعين وغير ذلك سوى ما كان في شرقي البلد من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غربي الغوطة والمرج من القصور والدور والمنازل المعروفة والأماكن المذكورة مما عفا رسمه وبقي ذكره . قال وما من موضع يحفر فيه الا وجد فيه أثر العمارة من سائر نواحي البلد من قبليه وشرقيه وشآمه وغربيه ، والله يحرس ما بقي منها ويحميه بمنه ولطفه اه

ومن أماكنها الداثرة الدراجية وهو برج الدراجية على باب توما ، كان لعبد الرحمن ويقال لعبد الله بن دراج مولى معاوية بن أبي سفيان وكاتبه على الرسائل في خلافته . ومنها طرميس والستي وسام وأرزونا قرية قرب عربيل ، وبيت الأبيات كانت محل طاحون الشنان ، وبيت الأبيات كما في تحقيقات السيد دوسو هي في الغرب تدخل فيها قرية النيرب ، وبيت الآبار قرب جرمانا ومنها بيت سابا . ومن قراها الداثرة يعقوبا قرية صغيرة كانت غربي حزّة

بعض عاديات الغوطة وآثارها

أهم عاديات الغوطة أديارها وفي كتب الفتوح أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه صالح أهلها على خمس عشرة كنيسة كانت في دمشق فنزلوا له عن نصف كنيسة القديس يوحنا أي الجامع الأموي كان المسلمون أخذوا نصفه يوم دخلوا دمشق . وكان في الغوطة دير يونا « يوحنا » و « دير محمد » كان عمر بن عبد العزيز يراه أهلاً للخلافة ، واليه تنسب المحمديات فوق الأرزة ودير محمد كان عند المنيحة من اقيم بيت الآبار ، و « دير الحنابلة » كان بسفح قاسيون و « دير هند » كان في مقاطعة بيت الآبار و « دير بشر » كان عند حجيرة ينسب الى بشر بن مروان ، و « دير العالية » نزله مروان بن محمد . ومن الأديار الداثرة « دير حنينا » و « دير الماطرون » و « دير قبيس » و « دير سمعان » قال القرماني إنه كان في الغوطة و « دير خالد » ويعرف « بدير صليبا » و « دير زكي » . ومر بهذا الدير عبد الله بن طاهر من اعظم وزراء المأمون ومعه اخ له فشربا فيه وخرجا الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مصر فمات أخوه بها ، وعاد عبد الله فنزل في ذلك الموضع فذكر أخاه فقال :

أيا سروتي بستان زكي سلمتما وغال ابن أمي نائب الحدثان
أيا سروتي بستان زكي سلمتما ومن لكما أن تسلما بضمان

ومن الأديار « دير البخت » على فرسخين من دمشق ويسمى « دير ميخائيل » كان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختاً وهي جمال الترك فغلب اسم البخت عليها . ومن أديارها المشهورة « دير مران » في سفح جبل قاسيون المطل على دمشق من الغرب ، كان يشرف على مزارع الزعفران من أرض اللوان . وبقي هذا الدير عامراً الى القرن السابع للهجرة ، ولطالما قصده الخلفاء والأمراء والشعراء وقيلت فيه القصائد والمقطوعات . ولأبي الفرج عبد الواحد الببغا من شعراء اليتيمة قصيدة قالها فيه لما قصده للتنزه . قال إنه فتح مناظر ذلك البيت الى فضاء ادى اليه محاسن الغوطة ، وحباه بذخائر رياضها من المنظر الجناني ، والنسيم العطري ومما قال :

ويوم كأن الدهر سامحني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه أفراس الصبا بارتياحنا الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر النسيم بأنفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالفيض يجري الى نهر
وفي الهيكل المعمور منه انتزعتها وصحبي حلالاً بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها أشرب التبر بالتبر

وفي معجم ما استعجم : أن عقبة مُرّان مشرفة على غوطة دمشق تنبت شجراً باسقاً تتخذ منه القنا والرماح وهو المران . ولعل الدير سمي باسم هذه الشجرة . وكان في الغوطة (دير بولس) و (دير بطرس) او فطرس كانا في ظاهر دمشق في نواحي بني حنيفة ، لا يبعد احدهما عن الآخر كثيراً ، وإياهما عنى جرير بقوله :

لما تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقلت للركب اذ جد الرحيل بنا يا بعد يبرين من باب الفراديس

ويبرين موضع في الأحساء من جزيرة العرب ، وباب الفراديس هو الذي نطلق عليه اليوم باب العمارة احد ابواب دمشق .

قال ابن بطوطة وفي شرقي البلد (دمشق) قرية تعرف ببيت الاهية [1] (لميا) وكانت فيها كنيسة وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام . ولم تبق لعهدنا قرية تبدأ باسم دير سوى « دير بجدل » وكانت هذه الأديار في الاسلام منازل المسافرين ، ومثوى المتنزهين والمرتاضين ، يقصدها الناس فيجدون فيها صدوراً رحبة ، ونُزُلاً طيباً ، وشراباً لذيذاً (راجع مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وكتاب الديارات للشابشتي ومعجم البلدان لياقوت) .

والغالب ان القرى التي يبدأ اولها بدير كانت اولاً ديراً فقط . ثم توفرت بجانبه الأرض المغروسة والمزروعة ، وكثر القائمون على حراثتها وزرعها ، فأصبح الدير على توالي الأيام قرية برأسها . كما كان الحال في كثير من المدن والقرى في بلاد الغرب خلال العصور الوسطى ، استحال الدير بلداً مع مرور الأيام .

ميزات الغوطة

اجمع من وصفوا الغوطة على توالي القرون انها شجراء ، وان فيها قرى كالمدن ، وان اهلها كأهل الحاضرة بعاداتهم وازيائهم . ولولا الغوطة ما كانت دمشق من اجمل مدن العالم ، ولولا دمشق ما كانت الغوطة إلا صحراء خالية تعيث البادية في ربوعها . وعيث البادية في المعمور من بلاد الشام قديم جداً على ما يظهر ، لنزول العرب بلاداً مجدبة من الجزيرة تقحط أكثر السنين فيضطر أهلها الى الانتجاع ، فلا يرون أمامهم غير بلاد حوران المتاخمة للغوطة ، وإذا لم يجدوا مراعي لمواشيهم في الجولان والجيدور والبثنية والصفا واللجاة يعرجون على الغوطة بالضرورة ، ولذلك أقام الرومان مخافر عظيمة على سيف البادية لا تزال الى اليوم بعض آثارها

(١) بيت الاهة كانت حارة في دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ماثلة ، وولوا عليها رجالاً من بني غسان من متنصرة العرب ليحموها من غارات اهل البادية ، فكان أمراء الغساسنة حماة الغوطة وما اليها من المعمور ، والوسطاء بين قومهم العرب وأصحاب البلاد من الرومان .

ولما جعل بنو أمية من دمشق عاصمة ملكهم العظيم ، كان للغوطة حظ جزيل من عنايتهم ، فنزلها رجال منهم وعمروا فيها القصور ، وأنشأوا المزارع ، وشقوا الجداول ، وعنوا باستثمارها واستنباتها . ولولاهم ما حازت الغوطة هذه الشهرة ، ولولاهم ما كانت دمشق على هذه العظمة ، وما دمشق كما قال العلامة لامنس إلا حسنة من حسنات بني أمية . نعم دمشق مدينة للأمويين لاختيارها عاصمة لهم ، وهم أحسنوا ولا جرم الاختيار ، فهي وغوطتها سواء .

ولابن أبي العجائز كتاب فيمن سكن الغوطة من بني أمية نقل عنه المؤرخون والجغرافيون . قال ابن قيس الرُقيات :

أجارك الله والخليفة بالغو طة داراً بها بنو الحكم
المانعو الجار أن يضام فما جار دعا فيهم بمهتضم

وقال ايضاً :

أقفرت منهم الفراديس فالغو طة ذات القرى وذات الظلال

قالوا لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام رأى الغوطة ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين فتلا قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين) . ثم أنشد قول النابغة .

هما فتيا دهر يكر عليهما نهار وليل يلحقان التواليا
إذا ما هما مرا بحي بغبطة اناخا بهم حتى يلاقوا الدواهيا

قال ابن كثير هذا يقتضي بادئ الرأي أنه دخل دمشق وليس كذلك فانه لم يقل أحد انه دخلها .

ويروى ان امير المؤمنين المأمون العباسي اقسم يوماً وقد نظر إلى اشجار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغوطة ونباتها انهـا خير مغنى على وجه الأرض وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي لم يخلق مثله .

روى ابن عساكر ان ملوك بني العباس لم يزالوا يختفون إلى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر منهم المأمون فانه اقام بها واجرى اليها قناة من نهر منين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران وبنى القبة التي في اعلى الجبل وصيرها مرقباً يوقد في اعلاها النار لكي ينظر إلى ما في عسكره ، فاذا جن عليه الليل كان ضوؤها إلى ثنية العقاب وإلى جبل الثلج .

ومن اعظم ميزات الغوطة كون ارضها مقسمة بين اهلها تقسيماً طبيعياً في الجملة ، فلا ترى فيها زراعات كبيرة إلا نادراً ، وهذه مهما بلغ من سعتها تدار بمثل العناية التي تدار بها الزراعات الصغيرة . هكذا كانت في معظم ادوار التاريخ الاسلامي ، حتى ان سيف الدولة بن حمدان لما طمع ان يضم الغوطة إلى الاملاك السلطانية كاتب اهل دمشق ملك مصر فجاء في جيشه وطرد سيف الدولة عن الغوطة وعاصمتها ، وحرم ابن حمدان ملك دمشق لأنه حاول ان يجعل من الغوطة مزرعة واحدة ملكاً له . وكيف يرضى الغواطنة عن ذلك وهم يعتزون بها وينعمون ويسعدون ويقولون في امثالهم « شبر بإلية الخروف ولا ذراع بذنب الثور » ويقولون « قلّ بتغلّ » أي قليل من الأرض الجيدة تحسن تعهدها أعود عليك من ارض واسعة بائرة . ومن يملك في الغوطة فدانين أو ثلاثة فهو سعيد مرفه ، ومن مزاياها أن أهلها يجزئهم ما تنبته لهم أرضهم من المواد الاولية ، ولو كان عندهم الحديد والفحم الحجري لما احتاجوا الى شيء في صناعاتهم وزراعاتهم . ومن مزاياها أنها لكثرة أنواع محاصيلها من شجرها وأرضها وبساتينها وحقولها اذا اصابتها آفة سماوية في بعض السنين تستعيض من الأصناف الباقية ما تعيش به سنتها .

سكان الغوطة ولسانهم وأديانهم

دخلت اللغة العربية كورة الغوطة قبل الاسلام بقرون ، لنزول بني غسان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العرب فيها ولأن تجار العرب ما انقطعوا عن نزول هذه الديار منذ عرف التاريخ. ولما جاء خالد بن الوليد مدداً لجيش الشام من العراق عن طريق البادية غزا بني غسان في الغوطة يوم فِصحهم ، وركز العقاب راية الرسول عليه الصلاة والسلام في الثنية المطلة على الغوطة ، وهي هذا الجبل الهرمي البادي من الشمال للأنظار فسميت الثنية ثنية العقاب .

قال اليعقوبي إن أهل كورة الغوطة غسان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة ، وقال الهمداني في صفة جزيرة العرب : ومن كلب بارض الغوطة عامر ابن الحصين بن عُليم وابن رباب المعقلي . فبعض سكان الغوطة اذاً من أصول عربية ، واكثر من نزلها اول الفتح كانوا من العرب دع من كان فيها من الغساسنة وغيرهم قبل الاسلام . ولذلك كان سكان الغوطة يشتركون في معظم الاحداث التي تحدث في دمشق سياسية كانت أو غير سياسية ، على ما عرف في العرب من النجدة والاريحية ، ويصهر بعض الدمشقيين الى الغوطيين ، ويتزوج بعض الغوطيات من أهل دمشق .

اصبح سكان الغوطة على توالي القرون مسلمين من اهل السنة ، وليس بها لعهدنا سوى بضع مئات من المسيحيين في داريا وعربيل وصحنايا والأشرفية ، وفيها مئات من المسلمين الدروز في جرمانا وصحنايا والاشرفية ، وكان جميع أهل قرية جوبر يهوداً إلى ما بعد القرون الوسطى ، فانتقلوا الى دمشق في زمن لم نعرفه ، ولم يبق لهم فيها إلا كنيس مقدس عندهم يزورونه ويقيمون فيه صلواتهم . ويقول دوسو إنه في عهد الشفاليه دارفيو *Le chevalier d'Arvieux* من اهل القرن الثامن عشر كانت جوبر يسكنها اليهود . وقد استغرب ابن طولون الصالحي ان اهل جرمانا تيامنة ، قال : وهذا عجب من كونه في هذه الغوطة فان اهلها جميعهم من اهل السنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليس للغوطة احصاء يركن اليه ولا يقل اهلها عن مئة الف انسان على اقل تقدير . وقد نموا في العهد الاخير نمواً هائلاً لقلة الأوبئة ، وانقطاع الحروب منذ زهاء خمس وعشرين سنة ، وما اظنها كانت قبل خمسين عاماً اكثر من عشرين الفاً ، وكان اهلها الى اواخر القرن الماضي يبتاعون العبيد ليعملوا معهم في الارض وذلك لقلة اليد العاملة في ذاك العهد .

ويقل جداً من هاجر إلى اميركا وغيرها من اهل الغوطة ، على نحو ما يكون من سكان الجبال المجاورة الذين غادروا مساقط رؤوسهم بالالوف . وندر من يرتحل عن أرضه من الغواطنة ، مهما ضاقت به سبل العيش ، اللهم إلا للتجارة موقتاً . وما عهد أن مات أحد جوعاً في الغوطة . ويروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قال وقد أشرف على الغوطة : يا غوطة إن عجز الغني أن يجمع منك كنزاً ، لم يعجز المسكين أن يشبع منك خبزاً .

قلت مرة في وصف الغوطة وأهلها : سلام على سكونك في الليالي الظلماء والقمراء ، ربيعاً كان أو صيفاً او خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً لمن يستمتعون بالنظر إليك من الصباح الى المساء ، وينعهدونك بالحرث والكرث والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم حمارّة القيظ وصبارّة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار ، سلام عليهم إنهم مثال النشاط في المزارعين ، لا يضنون على أرضهم باوقاتهم وأتعابهم ، وهي تجودهم ضروب الخيرات كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات كلما رعوها فأحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتها ، بيض الوجوه شم الأنوف ، لأن رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون في تحصيل قوتهم على غير قوتهم ، ولا يتكلون على غير من ينزل الغيث وينمي الزرع ويدرّ الضرع . في هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الإلهي في تقسيم الأرزاق ، فلا فقر مدقع ، ولا غنى مفرط . بل هناك تتمثل اشتراكية الاسلام والفطرة ، بعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويغتني افراد منهم بذكائهم واقتصادهم ، فلا ترى في فقرائهم سلاطة الجياع ارباب النهم ، ولا في اغنيائهم قسوة قلوب اهل الرفاهية والنعم .

ثمارها وزروعها

يجود في كورة الغوطة معظم الثمار والحبوب والبقول التي تجود في الأقاليم المعتدلة ، ولا يجود فيها الليمون والبرتقال ، ولا النخيل والموز للجليد الذي يحدث فيها بعض ايام الشتاء . فتنزل درجة الحرارة إلى خمس واحيانًا إلى عشر درجات واكثر تحت الصفر ، وقد اشتهرت داريا بعنبها الزيبي ويقل نظيره في انواع العنب الجيد ولطالما نقلت جفنات كرومها وزرعت في كروم بعيدة فما اتى عنبها كالعنب الذي يكون من كروم داريا واشتهرت به ، وعرفت دومة بعنبها الاحمر ، ويجود الزيتون على انواعه اجمالاً في القرى التي تكثر في ارضها الحصباء ، وليست ذات تربة طينية لزجة ، كبرزة والقابون وحرستا ودومة والمزة وكفرسوسية وبلدا وببيلا وحوش الريحانية وغيرها .

وفي الغوطة الوسطى يجود القنب ، ولا مثيل له فيما يزرع منه في بعض قرى حلب وغيرها . يجود في أرض المحمدية وحمورية والافتريس وجسرين وسقبا وكفربطنا وزبدين والبلاط والحديثة والمنيحة وجرمانا وعقربا ، اي في القرى التي تسقى من نهري المنيجي والداعياني اللذين يحملان أوساخ دمشق ، كما أنه يجود في بعض الحدائق كأرض الشاغور والبساتين الواقعة حفافي هذين النهرين ، ومحصول القنب في القرى التي تتوفر على زراعته يزيد على نصف محصولها السنوي من سائر أصناف الحبوب والثمار ، وزراعته صناعة عظيمة كالكرمة في داريا ودومة . وتستأثر سقبا وحدها بأكثر من نصف المحصول تستخرج أعواده واليافه .

ولكل قرية او بضع قرى في الغوطة خاصة لا يشاركها فيها سواها . فقد اشتهرت بساتين الضاحية وقريتا كفرسوسية والقابون بالبقول والخضراوات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يجاريها مجار في هذه السبيل من جميع القرى ، يساعدها على هذا التفرد كثرة المياه فيها وقربها من الحاضرة ، واشتهرت جسرين ببزر الفصة وبزر الخيار ، وعرفت حرستا وما اليها بالبيقية والاينسون والسمسم ، وعربيل بلوزها ، وزملكا بكمثراها ، ودومة ببطيخها الاصفر ، ويلدا وببيلا والقدم بقشدتها .

واكثر ما في الغوطة من الاشجار المغلة المشمش على أنواعه ، ويكاد يكون مشمش الغوطة منقطع النظير ويفوق بمائيته ونكهته مشمش كلفورنيا المشهور كما روى العارفون . واستخراج عصير المشمش ذي البزرة المرة المسمى بالكلابي — من الفارسية كل آبي ، ومعناه ماء الورد — فن عظيم يحسنه أهله المتمرنون عليه . أما المشمش البلدي والحموي وغيرهما من الأنواع ذي البزرة الحلوة فشيء لا تشبهه إلا فاكهة الجنة .

وهناك الجوز واللوز والتفاح والكمثرى « الانجاص » والخوخ والجانرك والآس والصبار والدراق والتوت الشامي والتين والسفرجل والزعرور وغيرها من الفواكه التي هي مضرب الأمثال بطعمها ونكهتها وحجمها ، وكان يكثر في الغوطة الزعفران والكراز والوشنة والكستانة (الشاه بلوط) والبندق والمشمولة والقراصيا والاجلجق (قزلجق) فبطل غرس الكستانة والبندق وقل القزلجق والوشنة والمشمولة وفقد الزعفران بالمرة كما نسيت زراعة القطن وزراعة التوت لتربية دود القز . وكان لدود القز في القرن العاشر محلات بين عدة أنهر قرب ضريح الشيخ رسلان تهرع الناس اليها في أيام حل جوز القز حتى يصير حريراً للفرجة عليه .

ومن أعظم موارد الغوطة الحور (الرومي والفارسي) والصفصاف ومن محاسنها الحيلان يشبه الصفصاف تصبغ في أوائل الربيع جميع أغصانه بالأحمر كقضبان المرجان ويلحق به شجر الأزادرخت (الزنزلخت) وله زهر طيب الرائحة ويزرعونه على جانبي الطرق العامة والجادات ، وكان يكثر فيها شجر السرو ولا تخلو دمشق وأرباضها من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أشجاره وكثرته إلى اليوم في أرض الصالحية ، وكان الى القرن الماضي وافراً في أرض الغوطة وما كان يخلو كل بيت في دمشق وغوطتها من شجرة أو شجرات منه . ومن الاشجار الحديثة فيها الاوكاليبتوس او الكينا والسنط (الاكاسيا) والمشمش الهندي وبعض أصناف صارت بالتفنن بالتطعيم مثل المشمش الحلو ، ومنها الكراز . ومن البقول البطاطا والبندورة . ويحاول بعض الغوطيين أن يربوا شجر الشوح وما أظنه يجود في اقليمنا ، كما يجود في رومانيا من بلاد حوض البحر الأسود ، ولكل كورة خصائصها الجوية والأرضية تعمل في النبات والحيوان .

أنهارها وريها

تبدلت معالم الغوطة كما قلنا غير مرة كأن الأرض الخصبة تحتاج أبداً إلى من يثيرها ويجددها ويسمدها ، فإذا كثرت فيها الصروح والقصور والمصانع المتينة تجمد أرضها وتضيع مزيتها ، لذلك كانت أرض الغوطة أبداً في تجدد ، ومعها تتجدد المرافق والمعالم والأوضاع . وليس في صحيفة هذا الوجود ما يثبت على الدهر ، ولم يتبدل في الغوطة ماؤها ولا هواؤها ولا تربتها . فالغوطة تسقى من سبعة أنهار أو جداول كبيرة مشتقة من نهر بردى ، ولكم أن تقولوا ان الغوطة هبة بردى كما أن مصر هبة النيل . وبردى هذا يشتق منه الداراني والمزي والقنوات وبانياس وثورا ونهر يزيد ، وهذا النهر حفره أمير المؤمنين يزيد ابن معاوية فنسب إليه ، وقيل حفره يزيد بن أبي سفيان عم يزيد بن معاوية . وما يدخل مدينة دمشق من هذه الأنهار يحمل قاذوراتها فتكون سماداً يوزع في ارضها كلما اراد الغوطي ارواءها . وهذا من جملة العوامل في خصب الغوطة وامراعها ، يضاف الى تربتها الغنية وجوّها المعتدل . وقد تحفر في بعض الاماكن اربعة او خمسة امتار ، ولا تصل إلى طبقة الحصباء والحجر ، لكثافة الطمي او المادة الصالحة للزرع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هـذا أهم ما يسقي الغوطة من الأنهار ، ومن ارضها تنبع عدة قنى تسقي مزارعها واراضيها وما وراءهـا من ارض المرج مثل عيون فاسريا تنبع من سفح الجبل شمالي دومة وتكون حارة ثم تبرد . وهذه العيون تسقي قرية عذراء في المرج ، وكذلك عيون قلايا في ارض المحمدية تسقي ما انخفض من الارضين هناك وربما كان اسم قلايا وفاسريا اسم القريتين اللتين يجريان إليهما . ومثل نهري الزابون والملك ينبعـان من بردى او من عين قريبة من مجراه ويسقيان بعض اراضي جسرين والمحمدية والافتريس ومثل نهري الشيلاني (الشيداني) والبيلاني (البالاني) يسقيان الحديثة وزبدين وبالا وهما مما ينبع من قرارة بردى ويتجمع من مصاصات المياه المجاورة . ومن القرى ما لا تصل إليه مياه بردى كبعض ارض داريا وارض صحنايا والأشرفية وحوش الريحانية وبلاس وسبينة وسبينات وحجيرة والبويضة وقبر الست وبرزة فانها كلها تسقى من قنى خاصة بها ، أو من جدول قريب كبرزة تسقى من نهر معربا أول جبل قلمون او سنير ، او من عيون هي في حقيقتهـا رشح من ماء بردى كعين حروش في أرض زبدين . ومياه هـذه العيون كمياه الأنهار منظمة بنظام دقيق بحيث تأخذ كل أرض حقها وتوزع على أرباب الحقوق توزيعاً عادلاً ، ولهم فيها مصطلحات يصعب على غير أهل القرى أن يتفهموها بسرعة . وليس في حقول الغوطة ما تعيش زراعاته الصيفية عذياً أي من المطر كزراعات الجبال . واكثر أهل الغوطة تمتعاً بالمياه أرباب البساتين المحيطة بالعاصمة ، يسقون عندما يريدون من مواصيهم ، وتكاليفهم من الجباية اقل من تكاليف أهل القرى .

يتبع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغوطة

- ٢ -

مدنية الغوطة

أجمع من وصفوا الغوطة على اختلاف العصور أن فيها قرى كالمدن ، وأن أهلها كأهل الحاضرة أي دمشق ، ومنذ القرن الثامن قال ابن بطوطة ان في اكثر قرى الغوطة الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم ، ولولا أن تبدلت معالم الغوطة مرات لشهدنا عمراناً قديماً ، وما زلنا كلما حفرنا في الحقول البعيدة عن مراكز القرى نعثر على دمن تدل على عمران قديم فخم ، وعلى ثروة وحضارة . وكان بناؤهم بالحجر الصلب على بُعد المقالع عن الغوطة ، ومعظم بنيانها الآن باللبن ويقل فيها البناء بالحجر .

وحدثتنا الكتب أنه كان في بعض قرى الغوطة جوامع متقنة ، وكان فيها قصور صبرت على الأيام مثل قصر بيت لهيا في طريق الواصل من مدينة السلام بغداد والراحل اليها ، كانت لغنيّ اسمه السكسكي ، وكان له في اقليم بيت لهيا عدة قصور مبنية بالحجر والخشب الصنوبر والعرعر ، في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه ، وكان هذا القصر في ارض حرستا . وروى المؤرخون ان القصر الذي بُني للمتوكل كان في طريق داريا ، وان البانين اختاروا هذا المكان لبعده عن ضباب الغوطة ورطوبتها ، قال المسعودي : ان المتوكل لما نزل بدمشق أبى ان ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها ، وما يرتفع من بخار مياهها ، فنزل قصر المأمون وذلك بين داريا ودمشق على ساعة من المدينة في أعالي الأرض ، وهذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة واكثر الغوطة ، وكان يعرف بقصر المأمون الى سنة ٣٣٢ ، وفي عيون التواريخ للكتبي ان المتوكل أقام بدمشق سنة ٢٤٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبنى بها القصور ، وهي التي بطريق داريا ، ثم انه استوخمها ورأى أن هواءها بارد رديء وماءها ثقيل بالنسبة الى هواء العراق ومائه ، ورأى أن الهواء يتحرك بعد الزوال في زمن الصيف فلا يزال في اشتداد يثير الغبار الى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار وانقطعت الأجلاب ، فضجر منها بسبب كثرة الشتاء والثلوج ، ومعلوم أن المتوكل كان غريب الأطوار ضجرت منه أمته فقتلته ، ولا عجب أن أضجره هواء دمشق وماؤها

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وكان في الغوطة في القرون الوسطى والقرون الأخيرة قصور مشهورة ، منها ما بناه الملوك ، ومنها ما بنته الرعية او الأغنياء . ولما انقطع عيش البادية في الغوطة أوائل هذا القرن الهجري صحت نية اغنياء دمشق ممن يملك أرضين في ضاحيتها او قراها على اقامة القصور الجميلة ، وخربت هذه القصور والدور البديعة في الثورة السورية (١٩٢٥ — ١٩٢٦) . وأهم ما أصابه الحريق والتدمير قصور برزة والقابون والعنابة وجرمانا والمنيحة والحديثة وزبدين وحمورية والافتريس وجوبر والمزّة ، ومن القرى ما دثر برمته مثل جسرين والمنيحة وبرزة كما خربت في دمشق أجمل دورها وقصورها الأثرية .

كانت الأرض الموقوفة في الغوطة كثيرة جداً ، وقد قلت في العهد الأخير واستبدل بعضها ، وكان من السلاطين من يقفون سهماً من ضيعة أو ضيعة برمتها أو ضياعاً على اعمال الخير كما فعل نور الدين محمود بن زنكي صاحب مصر والشام فانه بنى قصراً للفقراء في الربوة ووقف عليه قرية داريا اعظم قرى الغوطة واغناها ، لتكون قصورهم الى جانب قصور الأغنياء فقال الشاعر الكندي :

إن نور الدين لما أن رأى في البساتين قصور الأغنيا
عمر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطلقة للفقرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبقيت قصور الأغنياء في الربوة الى القرن العاشر، وما من اثر اليوم لأنقاض قصر الفقراء ولا لقصور الاغنياء ولا لقصر المأمون والمتوكل ولا للقصور الدارسة في الربوة والشرف الأعلى والشرف الأدنى من غربي دمشق، كل أولئك خرب على عهد العثمانيين، بما لاقته البلاد في القرن الذي قبل القرن الماضي من تعدي عسكر الانكشارية وسوء ادارة القائمين بالأمر.

روى البدري انه كان في كل شرف من ذينك الشرفين عدة من المدارس والمساجد ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء فأظهروا فيها انواع المفاسد، قال النواجي:

ألا إن وادي الشام أصبح آية محاسنه ما بين اهل النهى تتلى
وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

وفي الشرف الأعلى اليوم قامت حديقة الأمة والمشتل الزراعي ومدرسة التجهيز للذكور، وهي من المباني المحدثة البديعة، وفي الشرف الأدنى أقيمت الثكنة الحميدية والجامعة السورية والمستشفى الوطني ودار الآثار والتكية السليمانية.

ذكر ابن عبد الهادي من اهل القرن التاسع في تاريخ الصالحية من المحاسن محلات الشرفين المطلين على الميدان أي الميدان الأخضر الذي نطلق عليه اسم مرج الحشيش اليوم، وكان عامراً من الطرفين، وفيه خطب ومدارس ودور الأمراء وتدق نوباتهم في كل ليلة، وفيه حوانيت وخانات حتى يوصل منه الى النيرب ثم منه الى الدهشة ومنها الى الربوة، قال وكان جميع ما تقدم في تاريخ السبعمائة عامراً آهلاً، وتعدى عليه في عصر الثمانمائة وبطلت منه الخطب والى الآن، قال: وبقية الأماكن من الربوة الى السهم والنيرب والشبلية ومحلة طاحون الشنان ومحلة الميطور وقصر اللبان والشرفين فكلها تبدلت بعد الأماكن بالجنان.

ومع شدة اختلاط الغوطيين بأهل الحاضرة لا تزال الأمية غالبة عليهم، ولا تزيد المدارس الابتدائية التي أنشأتها الحكومة فيها عن ثنتين وعشرين مدرسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للذكور والاناث ، والواجب أن تكون ثمانين نصفها للذكور والنصف الآخر للاناث ، ولم ترسل الحكومة اليها الوعاظ والخطباء من طبقة جيدة فأصبح المجال رحباً للمخرفين ، يؤذون العقول بخرافاتهم ويستلبون مافي الجيوب ، ويقلّ الذكاء في الغوطة ويكثر النشاط .

خرج من الغوطة أجلة المحدثين والفقهاء والأدباء والحفاظ ومنهم الحافظ الزملكاني والحافظ اليلداني ، وخرج من حرستا محمد بن الحسن صاحب الامام أبي حنيفة ، ذكر بعض من أخرجتهم أرضها ممن كتبوا في خطط هذه المدينة وغوطتها ، وعنوا بالرجال من أهلها فترجموا لهم ولا سيما لحفاظ الحديث .

نعم كانت معظم قرى الغوطة أشبه بمراكز علم ورواية ، ومن جملة تآليف الحافظ ابن عساكر من أهل القرن السادس كتاب روايات ساكني داريا ستة أجزاء ، وكتاب من نزل المزة وحدث بها جزء واحد ، وكتاب أحاديث كفرسوسية جزء واحد ، وكتاب احاديث صنعاء الشام جزءان ، وكتاب فضل الربوة والنيرب ومن حدث بهما . وكتاب حديث الحميريين وقبيبة جزء واحد ، كتاب حديث أهل فذايا وبيت أرانس وبيت قوفا جزء واحد ، وكتاب حديث أهل قرية البلاط جزء ، ومن حديث اهل زبدين وجسرين جزء واحد ، ومن حديث سلمة بن علي البلاطي جزءان ، ومن حديث أهل بيت سوى جزء واحد ، ومن حديث دومة ومسرابا والقصير جزء ، ومن حديث جماعة من أهل حرستا جزء ، ومن حديث أهل كفربطنا جزء ، ومن حديث أهل دَقَانية [1] وحجيرة وعين ثرماء وجَدَيا وطرَميس جزء ومن حديث جماعة من أهل بيت لهيا جزء واحد . ومن حديث يحيى بن حمزة البتلهي جزءان . ومن حديث أهل بزة جزء . اه وجميع هذه القرى من قرى الغوطة والذي دثر منها صنعاء الشام أو صنعاء دمشق ، وكانت في منتصف الطريق بين دمشق والمزة خرج منها محدثون كثار ، ومنها النيرب والحميريون وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والقصير

(١) ذكرها ابن طولون في ضرب الحوطة والغالب انها دثرت بعد القرن الحادي عشر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاقانية وجديا وطرميس وبيت لهيا وقبيبة . وبعض قرى الغوطة كانت الى القرن الثامن والتاسع تزدان ببعض العلماء والأدباء ، ويكفي ان مثل الحافظ الذهبي في القرن الثامن كان يدرس في كفربطنا ، وزعم ابن طولون الصالحي ان الذهبي من جماعة من الأئمة المحدثين الذين خرجوا من كفربطنا أي انه من أهل هذه القرية .

وبعد فان الغوطة اليوم ينقصها كثير من مرافق المدنية ، اذ أتت عليها قرون كانت الحكومة تأخذ خيرها وأموالها ولا تنفق عليها واحداً في المئة مما تأخذ ، فتأخرت بمعارفها وتعطلت طرقها وجسورها ومدارسها وجوامعها ، وليس فيها غير بضع طرق معبدة في الجملة ، وهذا مما تم في العهد الأخير ، وطرقها القديمة عريضة جداً فاستصفى اكثرها بعض من يستحلون كل شيء في جمع ثروتهم

هذا وليس في الغوطة من آثار المدنية سوى خط ترام كهربائي يربط دمشق بحاضرة الغوطة الشمالية اي دومة ، وطوله أربعة عشر كيلومتراً يمر ببساتين العنابة وأرض جوبر وزملكا وعربيل وحرستا ودومة ، واذا امتد هذا الخط الكهربائي فوصل بين دومة وداريا فدمشق ماراً بأمهات قرى الغوطة الوسطى والجنوبية مثل حمورية وسقبا و كفربطنا وجسرين والحديثة وزبدين والمنيحة وجرمانا وعقربا وبلدا وببيلا والقدم و كفرسوسية والمزة ، اي ربطت الغوطتان القبلية بالشمالية ، ومدت قساطل ماء عين الفيجة الى القرى كافة (والقوم يشربون الى اليوم من آبارهم ترشح من الأنهار القذرة) تصبح قرى الغوطة محيطة بدمشق احاطة الهالة بالقمر ، وتغدو هذه المزارع والقريات كأنها بعض أحياء الفيحاء ومحلاتها ، وتنقلب بعض تلك الدساكر مصايف ومشاتي ، وكلما زاد عدد الجادات العظمى فيها وبنيت الفنادق والمقاهي تغدو الغوطة قبلة المتنزهين ، وكلما زاد عدد البيوت والقصور استحالت الغوطة من أرض زراعية الى منازل تتسع بها دمشق حتى تصبح عاصمة كبرى كالقاهرة .

اذا تم هذا يتحقق في الغوطة ما ادعاه بعض المفسرين في قوله تعالى « إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد) من أن ذات العماد هي دمشق حاضرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغوطة وكان فيها فيما قيل أربعمائة الف عمود ، وفي قوله تعالى (وآويناهما الى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعين) من انها أيضاً مدينة دمشق بأرض يقال لها الغوطة .

طرائقها الزراعية

قال أحد العارفين ان لمدينة دمشق طابعاً خاصاً في مرافقها ومصانعها وأوضاعها ومناحيها ، قد لا ترى ما يماثله في البلدان الأُخرى ، وهذا الطابع يتناول غوطتها أيضاً ، فان الناظر في ارجائها لا يزال الى اليوم يرى الزراعة فيها على الطرق القديمة ، لم تتسرب اليها الأساليب الحديثة الا قليلاً ، ثم ان ما أدخلته من التحسن في زراعتها وصناعاتها الزراعية قد تلحظ أنها تمثلته وتبنته ، فهي تسير في معظم حالاتها على أصول الأجداد ، ولكن مع الاتقان والاحتفاظ أبداً بطابع القرون الغابرة ، ومعظم ما عملته فيها الأيدي والعقول لا يبدو عليه التجدد الا بقدر الخال في الوجه الجميل ، ذلك لأن من عادة الغوطيين الا يبادروا الى اقتباس الجديد الا اذا قامت لهم البراهين على عظيم فائدته ، ويعضون على ما لم يألفوا ، لا يخرجون عن طبيعة أرضهم ، وقد عرفوا بالصبر على استثمار الشجر واستنبات النبات .

يستخرج الغوطيون الزيت من زيتونهم ، والدبس من عنبهم ، والعصير (القمرالدين) من مشمشهم ، والورد والعطور من زهرهم وورودهم ، والصابون من زيتهم ، والأجبان والسمون والزبد والقشدة من البانهم ، والطحينة والشيرج من سمسمهم ، والنشاء من برهم . ويقطفون الزيتون والجوز بعصيهم ، وينقعون القنب في حُفرهم ، ويستخرجون أليافه على أسلوبهم ، ومنها يفتلون حبالهم وخيوطهم ، ويدبغون من جلود حيواناتهم سختيانهم ، ويحيكون من صوفهم قماشهم وثيابهم ، ويتخذون من اخشابهم أدوات زراعتهم وصناديق فاكهتهم ومنجور بيوتهم ، ووقودهم من حطبهم وبناؤهم من ترابهم وما برحوا يعلفون دوابهم بالقديم من طرائقهم ، ويحرثون الأرض ويزرعونها ويسقونها على نحو ما كان يفعل آباؤهم .

وما جلب بعض الغوطيين الآلات الرافعة واعتمدوا عليها لإرواء صعيدهم إلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما أعوزتهم اسالة المياه من أنهارهم ، وشحت الجداول في بعض السنين فخافوا أن تصوّح ادواحهم ، وما عرفوا الأسمدة الكيماوية الا عندما قلت الأسمدة الطبيعية ، وما عادت تكفي لما طمحت نفوسهم الى تسميده وتجديده من الأرَضين ، وما ألفوا تذرية الحبوب بالآلة التي اوجدها احد مواطنيهم الا لما ثبت لهم ان تذريتها بالمذراة وتحين هبوب الريح ، مما يطيل امد استخراجها من تبنها ، وتضيع عليهم بعض حباتها .

وكأن الغوطة السمحة التربة ، المعتدله الهواء ، الصافية الأديم تعطف على الفقير أيضاً ، فلا ترى أن تقطع رزقه ، وتحرم الصانع والعامل من أبنائها أجور سواعدهم ، فلا تعمد الى الآلات والأدوات الحديثة الا في أحوال شاذة . الغوطة تتوقى الغلطة التي وقع فيها الغرب لما استعاض عن الأيدي العاملة بما اخترع من الآلات ، فهي لا تريد أن ترتكب هذه السقطة لئلا يكثر فيها الناقمون والموتورون ، ثم تعم الاشتراكية ، وتنتشر الفوضى ، ويفسد الأمن ، ويتقلقل الحكم .

ورث الغوطيون عن آبائهم معرفة تأثير الهواء في الزروع والأشجار ، وأخذوا عنهم أصول زراعة الارض واستثمارها ، ومعرفة تربتها واروائها ، وما يصلحها وما يضرها ، لا يُخلون بشيء مما نقلوه عنهم ، وأساليبهم في ذلك سليمة في الجملة ، وقد تكون أقرب الى العمل من كثير مما اهتدى اليه العلم الحديث ، وصعب عليهم تطبيقه ، والانتفاع به حق المنفعة . رسخت في نفوسهم طرائقهم القديمة ، فمن الصعب ان تزين لهم طرقاً جديدة يتبعونها ، وندر من تعلم الزراعة من ابنائهم على الأُصول الحديثة ، اكتفاءً بالذي تلقوه عن أجدادهم .

فعلى عاتق الحكومة ، والحالة هذه ، واجب تعليم الغوطيين فيما تربو به مكاسبهم ، وتعتقد فيه هناءتهم وناعمَ عيشهم . وعليها ان تقيم لهم المخابر والمشاتل والمناحل وحظائر الدواجن الى ما شاكل ذلك على ما يقضي به العلم العصري ، ويفرض على حكومة ترى من الواجب عليها انماء الثروة العامة ، أن توجد للعاطلين أشهراً من كل عام ، عملاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقتاتون به . ولو صرفت العناية بالصناعات الزراعية ، ولا سيما تربية المواشي والنحل وتربية الدواجن والطيور اكثر مما عليه الحال الآن ، لكان للغوطة من وراء ذلك أرباح ثابتة لا يُستهان بها تضاف الى رَيع أرضها وغاباتها ، فان البقر البلدي والماعز البلدي في الغوطة هما من عرق أصيل لا يكاد يكون له مثيل في سائر أقاليم الشام ، لكثرة ما يدرُّ من الألبان الجيدة . وهذه الأنواع من الضرع لا تعيش في غير ظلال الغوطة ، ولا تستمرئ غير مراعيها ومياهها ، ويسقط النحل بما في الغوطة من أشجار مثمرة وأزهار عطرة على غذاء شهي لا مثيل له في الأقاليم الأُخرى .

كان في الغوطة صناعات زراعية رابحة نازعتها صناعات أرقى ظهرت في اقطار أخرى ، فعطلت تلك الصناعات او ضعفت ضعفاً محسوساً لقلة الصادر منها الى الاقطار المجاورة على الأقل ، كما حدث للصابون لما نازعه الصابون الغربي الذي هو هناك وليد الكيمياء الحديثة ، وكما حدث للعطور والطيوب لما اخترعت الطيوب الاوربية نتيجة لازمة ايضاً لانتشار الكيمياء ، وكما توقفت منسوجات القطن والكتان والحرير فبارت .

وقد أبقى لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) صورة استخراج العطر من ازهار الغوطة وورودها ، قال : ان حراقته تلقى على طرقات المِزّة وفي دروبها وازقتها كالمزابل فلا يكون لرائحتـه نظير ، ويكون ألذّ من المسك الى مدة انقضاء الورد . وذكر صنعة اخراجه بالكركات والانابيق ، ورسم صورها وطرق استعمالها ، وما هنالك من كركات أخرى يستخرج منها ماء الورد وغيره من المياه بلا ماء بل بوَقود الحطب ، وذلك بعد حشو القرع بالورد وبلسان الثور وبزهر النيلوفر أو البان وزهر النارنج والشقشقيق والهندباء او بورق القرنفل .

قال ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك ، وكذلك يحمل زهر الورد المزي الى الهند والسند والصين والى ما وراء ذلك ، ويسمى هناك الزهر . ومما أرخوه انه كان لقاضي القضاة الحنفية ولأخيه قطعة بأرض تسمى شوز الزهر طولها مائة وعشر خطوات ، وعرضها خمس وسبعون خطوة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم ، وذلك سنة خمس وستين وستمائة ، وهذا لم يسمع بمثله .

وفي العهد القديم أيضاً كانت بعض القرى تختص بأشياء قد لا توجد في غيرها ، فقد ذكر القرماني أن في « عقربا » العنب الزبيبي الذي لا نظير له ، واليوم ليست كذلك ، ولا يجود هذا الصنف من العنب في غير قرية داريا ، ويجود في مدينة دمشق وحدائقها انواع العنب الكبير الحجم كالبلدي والبيتموني وغيرهما ، وكان ينسب القماش الى عقربا ايضاً فبطل عمله فيها من قرنين على الأغلب

روى البدري في محاسن الشام انه كان بالغوطة أشجار تحمل الواحدة منها اربع فواكه كالمشمش والخوخ والتفاح والكمثرى ، وبها ما يحمل الثلاث واقلهن اللونان من الفاكهة قال : وهذا موجود الى يومنا هذا (القرن التاسع) فاني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والاسود والاحمر ، رأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الابيض والاسود قال : وهذا من صنعة الفلاحة ويسمى التطعيم ، وذكر صورته كما هي معروفة الى اليوم .

ورأينا لهذا العهد قرية جرمانا تصنع أعبئة من الحرير والمرعز وغيرهما تليق ان تكون كسوة الملوك والملكات لجمال صنعها وتفويفها ، وقد نازعتها الألبسة الجديدة حتى كاد يقضى على انفع لباس اخترعته العرب في الدهر السالف ، وهو صالح لكل زمن لأنه لباس وغطاء ووطاء ، يقي البرد والحر ويتجمل به الرجال والنساء .

متنزهات الغوطة

في الغوطة عدة متنزهات هام بها الشعراء وذكروها ، وحنوا اليها حنو الحبيب لحبيبه ، منها (سَطرا) و (مَقرا) وفيهما يقول عبد الرحمن ابن خطيب داريا وقد أحسن التورية :

خليليَّ ان وافيتما الشامَ بكرة ... وعاينتما (الشقراء) والغوطة الخضرا

قفا واقرأا عني كتاباً كتبته ... بدمعي لكم (مقرا) ولا تنسيا (سطرا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و (الشقراء) مطلة على المرج الأخضر وعندها اليوم طاحون يقال لها طاحونة الشقراء ، و (مَقرَا) المكان المعروف عند طاحون الشنان في شمالي شرقي البلد . و (سطرا) عند جامع منجك قرب برج الرؤوس من ناحية الشرق ، وكان (البلكي) متنزهـاً حسناً بين سطرا ومقرا . روى البدري ان الناس يجتمعون فيه أيام زهر السفرجل ويطلقون الماء تحت أشجارهـا ، ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ، ويعلقون قشور النارنج موقدة في الاشجـار ، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ، ويقطعون فيه أياماً وأوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها .

قال ابن طولون الصالحي : أعظم متنزهات دمشق (الربوة) كان بهـا اربعة مساجد وجامع بخطبة ومدرسة وكان بها (التخوت) وهو قصر مرتفع على سن جبل به قاعة وطبقات على هيئة الايوان ينظر الجالس هناك من مسافة يوم لو لم يكن حائل به ، وكان بها خمسة مقاصف[1] اثنان شرقي نهر بردى وثلاثة غربيه ، وكان بها (العاشق) و (المعشوق) وهما برجان للحمام في لحف الجبل الغربي وشماليها برج عتيق يسمى (العذول) . وقال : انها خربت ثم عمرت وهكذا مراراً ، وفي عهده بقيت مأوى للوحوش قال بعضهم :

شوقي (يزيد) وقلب الصب ما بردا (وبان ياسي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) والعذول حكى (ثورا) يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنية (بالجنك) جاوبهـا شبابة كم بها من (عاشق) سهدا
فالبدر (جبهتها) والدف (ربوتها) وخلهـا مات في (خلخالها) كمدا

و (الخلخال) و (العاشق) و (المعشوق) و (الجنك) و (الجبهة) و (الدف) كلها من متنزهات دمشق في غربي المدينة .

(١) التقصف : اللهو واللعب على الطعام والشراب ، والمقصف محله وكانت المقاصف قبل ان تكون المقاهي وكلاهما يتشابهان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يقول ابن طولون : وفي شرقي الربوة (قطية) وهو مكان كان فيه سمان وشرائحي ومقاصفي وقد خربت ، وشرقها في الطريق المذكور (الجبهة) على حافة نهر بردى له مسجد ودكاكين ومقصف ، وظل الدف والجنك معروفين الى القرون الأخيرة فقد ذكر الرحالة الخياري في القرن الحادي عشر (الباسطية[1]) من متنزهات الصالحية وقال انه مرّ أيضاً في طريقه الى الربوة بالنيربين والجنك والدف والميطور وهي أسماء متنزهات . وقد مدح الأمير منجك قصر والده في غربي المدينة بقوله :

قصر الأمير بوادي النيربين سقى ... رباك عني من الوسميّ مدرارُ
كم مرّ لي فيك أيام هواجرها ... أصائل ولياليهنّ أسحار
حيث الشبيبة بكر في نضارتها ... وللصبابة احلاف وأنصار
حيث الرياض تغنيني حمائمها ... (بالدف) و(الجنك) و(الميطور) لي جار
حيث الخمائل أفلاك بها طلعت ... زهر من الزّهر والندمان أقمار

وتشوّق ابو المحاسن الشواء الحلبي الى متنزهات دمشق ، ومنها ما دثر اسمه اليوم بقوله :

عاطياني حديثَ (سطرا) و(مقرا) ... وابسطالي في هجري الكأس عذرا
أنا مالي وشربَ كاسات خمر ... شغلتني عنهن كاسات ذكرى
كم نعمنا في (بيت لهيا) بلهو ... وعلونا (بالقصر) و (السهم) قصرا
ومررنا (بدير مران) نشدو ... فيه نظماً وتسجع الوُرق نثرا
نتفيا مابين (الارزة[2]) والقا ... بون دوحاً يبدل القيظ قُرا
إن عندي يا (بيت أبيات) و (السيـ ... ـلون[3]) شوقاً اليكما مستمرا

(١) لم يذكر اسمها فيما أمامنا من الأسفار .
(٢) أرزة كانت الى القرن العاشر موجودة كما قال ابن طولون .
(٣) بيت ابيات حارة كانت غربي الصالحية ـ قاله ابن طولون الصالحي ـ ولم يذكر في المراجع اسم (سيلون) وسيلون اليوم بستان مطلّ على الربوة من أرض المزة وهو ملك سمو الامير يوسف كمال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بأبي (برزةً) فكم قد برزنا نتهادى فيها الى القصف جهرا
يا خليليّ ساعداني واني كنت بالحب قبل ذا اليوم غِرّا
خبراني عن (القصير[١]) و (حرنا) بخبير وددت لو كان خبرا
(معربا)و(الدريج[٢]) و (التل) جنا ت بعدنا عنها ولم نأت وزرا
و (مَنين) بها مناي فمن لي أن أقضي فيها من العمر شطرا
فثنايا على (الثنية) قصا وابسطا لي عذراً بأكناف (عذرا)
عللاني (بكفربطنا) و (جديا) وذراني من ذكر لُبنى وعَفرا
واسألا لي عن (جوبر) ثم (جر مانا) فلي فيهما مآرب أخرى
ولكم بين (دومة) و (حرستا) غرف توقف النواظر حسرى
وَدّ جفني ان لو غدا بين (يروى) و(كثار[٣]) يكاثر المزن قطرا
(فلقلبين) بات قلبي مشوقًا و (لعربين) ظلت العين عبرى
(بزملكا)و (عين ثرما)و(سقبا) و (بجسرين) ظلت اربع شهرا
لي رياض كأنهن السموا ت تضاهي زهر الكواكب زهرا
ثم قصّا عليّ أخبار (أشفا نية[٤]) تغنما بذلك اجرا
فلنا حولها مطارح لهو مسّ كف الحيا ثراها فأثرى
(حلفباتا) و (بيت قوفا) و (ببيلا) و (يلدا) قرىً بها أنا مغرى
انتحي حيثما توجهت ظلاً وأرى حيثما تلفت نهرا
ولنا تحت دوحها حرم نأ وي اليه اذا الهجير استمرا
(بحجيرا) و (تلفياتا) و (دير البا لسي[٥]) انهمكت في اللهو سرا

(١) في ضرب الحوطة ان القصير غربي كفرسوسية
(٢) مربا والدريج وحرنة ومنين والثنية ثنية العقاب من قرى جبل سنير أي قلمون، شمالي الغوطة.
(٣) ان كلمة كثار ويروى اسم قريتين أو متنزهين من متنزهات الغوطة على ما يظن .
(٤) أشفانية لم نتحققها ولعلها شفونية أو اشفونية من قرى المرج
(٥) من القرى التي لم نعرف لها ذكراً فيما لدينا من الكتب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دمن لو أقيس حسن دماها بسواها لجئت شيئاً نكراً
واذكرا (عقربا) و (دير العصاة ير[1]) لسمعي ان شئتما ان تسرا
فالى (بيت راتس) والى (دير النوا طير[2]) هزني الشوق سكرا
ولنا (بالبلاط) أوقات أنس نجتليها مجملات غرا
كم فتكنا بالهم فيها وأوسعْ ناصروف الزمان هجراً وهجرا
وشممنا من روض «راوية» نفـ ـحة ريح أذكى من المسك نشرا
يا ليالي «بكفرسوسية» كانت وهي «بالمزة» الأنيقة زهرا
ويك عودي لا اخضر عودي ان رمـ ـت مدى الدهر عن جنابك صبرا
فسقى واكف الحيا زبوة ذا ت قرار يهمي ليالي عشرا
جاء في محكم الكتاب لها وصـ ـف فماذا يقول من قال شعرا

ومن متنزهات الغوطة [السهم] وهو متصل بأرض الصالحية قال البدري في محاسن الشام: وهو درب ما بين دور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبحور، وفيه يقول القيراطي:

دمشق بواديها رياض نواضر بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمُّ
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها [نصيب] [ولا سهم][3]

قلنا: ان من متنزهاتها الخلخال، وكان هو والمنيبع محلتين، وفي محلة الخلخال سويقة وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الأتراك (في القرن التاسع) وكذلك المنيبع والشرفان وبه تدق طبلخاناتهم وبها زاويتان، وفي المنيبع محلة وسويقة وحمام وافران وبها مدرسة الخاتونية وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها وبجوارها دار الأمير ابن منجك [قاله البدري] يتبع

(١) من قرى المرج (٢) قرية أو متنزه لم نرَ له ذكراً في الكتب.
(٣) السهم من متنزهات دمشق والغالب أن اسم نصيب هو متنزه أيضاً ولكن ليس له ذكر فيما رجعنا اليه من المصادر، ونصيب قرية من قرى حوران.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغوطة

- ٣ -

أدب الغوطة

أُعجب العرب بالغوطة منذ كانوا يرتحلون اليها في الجاهلية فردد شعراؤهم اسمها وفي مقدمتهم حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما زالت الغوطة في الاسلام يتغنى بها الشعراء ، ويعجب بها أهلها والقاصدون اليها حتى قال أبو بكر الخوارَزْمي :ان جنان الارض اربع :صُغد سمرقند ، ونهر الأُبلة ، وشِعب بوّان ، وغوطة دمشق . قال انه زارها كلها فكان في رأيه فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الاربع على غيرهن ، وقال : كأنها الجنة وقد زخرفت وصُوّرت على وجه الأرض . وبالطبع لم يكن يومئذ ذكر لحدائق بلاد الغرب الآخذة بمجامع القلوب لجمعها بين الجمال الطبيعي والصناعي

يتألف من مجموع ما ورد على ألسن الشعراء في وصف الغوطة ديوان لطيف ، ومنه ما كان من الشعر الجيد لأنه صدر عن شعراء مشهورين ، وأدب الغوطة يجمع بين خصائص كثيرة منها الوصف والعاطفة والتاريخ ، وأرض كلها شعر لايستغرب فيها أن توحي الشعر للشعراء ويتغنوا بما خصها به الفاطر من البدائع ويخلدوها مجمعين على محاسنها .

ولا بأس ان نقتطف بعض باقات من تلك الازهار ونذكر بما طاب من جماع تلك الاشعار ، نقدمها متعة للنفس ، وذكرى لما في بطن الغوطة من خيرات .

أطلق البحتري على الغوطة اسم صحراء دمشق في قصيدته التي مدح بها المتوكل العباسي لما نقل دواوين الملك الى عاصمة الشام وهي التي يقول في مطلعها:

العيش في ليل داريا اذا بردا والراح نمزجها بالماء من بردى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى ان قال :

أما دمشق فقد ابدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً ... ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفاً خضلاً ... أو يانعاً خضراً او طائراً غردا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقال الصنوبري :

امرُّ (بدير مران) فأحيا ... واجعل بيت لهوي (بيت لهيا)
وتبرد غلتي بردى فسقياً ... لأيامي على بردى ورعيا
تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
فمن تفاحة لم تعدُ خداً ... ومن رمانة لم تخط ثديا
ونعم الدار داريا ففيها ... حلالي العيش حتى صار أريا
ولي في باب جيرون ظباء ... أُعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
هي الدنيا دمشق لساكنيها ... فلست أريد غير دمشق دنيا

قال ابن منير الطرابلسي من أهل القرن السادس

حيّ الديار على علياء جيرون [1] ... مهوى الهوى ومغاني الخرّد العينِ
مَرَاد لهوي اذ كفى مصرّفة ... أعنة العيش في فيح الميادين
(فالنيربين)(فمقرى)(فالسرير)(فجم ... رايا) فجو حواشي جسر (جسرين)
(فالقصر) (فالمرج) (فالميدان) (فالثـ ... ـرف الاعلى)(فسطرا)(فجرمانا)(فقلبين)
(فالماطرون) (فداريا) فجارتها ... (فآبل) فمغاني (دير قانون)

(١) جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقايف وحولها المدينة تطيف بها — قاله في المعجم . وفيه أن جيرون حصن قال : والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو بابه الشرقي يقال له باب جيرون وفيه فوارة ينزل عليها بدرج كبيرة في حوض من رخام وقبة خشب يملو ماؤها نحو الرمح ، وقال قوم : جيرون هي دمشق نفسها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تلك المنازل لا (وادي الأراك)ولا (رمل المصلى) ولا اثلات(يبرين[١])
واهاً لطيب غديات الربيع بها وبرد أنفاس آصال التشارين
ويطيبني[٢] لدار الروم ما شهرت (بدير مران) أعياد الشعانين
أبدت دمشق ربيعاً جلّ صانعه يأتيك في كل حين غير ممنون

والماطرون موضع قرب دمشق عدّ من بدائعها ونسب ليزيد بن معاوية قوله :

ولها بالماطرون اذا اكل النمل الذي جمعا
خُرْفة[٣] حتى اذا ربعت ذكرت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

ويستبعد ان يقول أمير المؤمنين يزيد هذا فانهم وضعوا عليه أشياء لم يفعلها ، ومنها بيتان قيل انه قالها لما أصاب المسلمين سبأ بأرض الروم وهما :

وما أُبالي بما لاقت جموعهم بالخذقونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مران عندي ام كلثوم[٤]

وقال العماد الكاتب كاتب صلاح الدين يوسف بن أيوب :

اهدى النسيم لنا ريا الرياحين أم طيب أخلاق جيراني بجيرون
هبت تنبه أطرابي وتبعثها مني وتوجب للتهويم تهويني
وما درينا أ (داريا) لنا أرجت أم دار في دارنا عطار (دارين[٥])
ورب همّ فقدناه (بربوتها) ورب قلب أضعناه (بقلبين)
لولا جسارة قلبي ما ثبت على ال عبور من طرب في جسر (جسرين)

(١) وادي الاراك قرب مكة يتصل بغيقة والمصلى موضع بعينه في تحقيق المدينة، ويبرين من أصقاع البحرين وهناك الرمل الموصوف بالكثرة بينه وبين الفلج ثلاث مراحل وبينه وبين الاحساء وهجر مرحلتان وهو فيما بينهما (ياقوت) (٢) في القاموس : طَيَّبْته عنه صرفته وإليه دعوته كأطيبته (٣) الخرفة بالضم المخترف والمجتنى كالخرافة (٤) الموم البرسام وأم كلثوم امرأته والخذقونة أو الغذقدونة بلد في الروم وهو الثغر الذي فيه المصيصة وطرسوس وأذنة وعين زربة
(٥) دارين فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند (ياقوت)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يصبيك(ميطورها)طوراً(ونيربها) طوراً ويوليك احساناً (بتحسين [1])
نعيمها غير ممنوع لساكنهـا كالخلد والمن فيها غير ممنون
أهوى مقري(بمقرى) والرياض بها للزهر ما بين تفويف وتزبين
هاجت بلابل قلبي المستهام بهـا بلابلُ الأيك غنتنـا بتلحين
تتلو (بسطرا) أساطير الغرام على صوامع الدوح وُرق كالرهابين
قمريها مقريء يشدو بنغمتـه آياً يعلمهـا من غير تلحين

وختمها بقوله :

حرستما في (حرستا) العيش من شظف دوما (بدوما) على حفظ القوانين

ولابن منقذ الكناني في وصف دمشق حاضرة الغوطة الكبرى وما اليها قصيدة مطولة جمع بها كل المحاسن ومما قال فيها :

وإذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تستطيع ان تتمثل الـ فردوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنـة او جدولا
او روضـة او غيضـة او قبـة او بركة او ربوة او هيكلا
او وادياً او نادياً او ملعبـا او مذنباً او مجدلا او موئلا
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيـه الرخام مجزّعاً ومفصلا
وفواكه متخالف أصنافهـا ممـا يشوقك مطعماً وتأملا
مصفر تفاح بدا في أحمر يحكي المحب أتى الحبيب مقبلا
والورد مثل الخد يعلوه من الـ ريحان صدغ شعره قد رجلا
وبنفسج كنفاضـة من اثمدٍ تبديه أجفان البكاء تذللا
وتخال نورَ الباقلاء اذا بدا للواحظ الأبصار طرفاً احولا

(١) لم نعرف قرية أو متنزهاً بهذا الاسم.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نشرت مطارفه وجاءك نشرها فحسبتها وشيا تأرج مندلا
ويهزّ مرّ نسيمها أشجارها فتخال غادات تشكت إفكلا (١)
وعلت غصون خلافه محمرةً وهفت بها ريح فضاهت مشعلا
واذا البلابل اسمعت ترجيعها السالي تراجع وَجده متبلبلا
ومتى هوى وَرق الغصون وجدته ذهباً وكان زمرداً لما علا
وكأن واديها قراب اخضر يستل من بردى حساماً منصلا (٢)

وقال ابن عُنين وهو بالهند يتشوق الى دمشق وغوطتها

حنين الى الأوطان ليس يزول وقلب عن الأشواق ليس يحول

الى أن قال :

كأن الثريا غرّة وهواءهم له من وميض الشعريين حجول
ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة وظلك (يا مقرى) عليّ ظليل
وهل أريني بعد ماشطت النوى ولي في ذرى روض هناك مقيل
دمشق فلي شوق اليها مبرح وإن لجّ واش او ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وانفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل
فياحبذاالروض الذي دون(عزتا) سحيراً اذا هبت عليه قبول
ويا حبذا الوادي اذا ما تدفقت جداول (باناس) اليه تسيل
وفي كبدي من(قاسيون)حرارة تزول رواسيه وليس تزول
اذالاح برق من(سنير)تدافعت بسحب جفوني في الخدود سيول
فلله أيامي وغصن الصبا بها وريق واذ وجه الزمان صقيل

وعزتا او عزة قرية من نواحي وادي بردى ربما كانت قرب الفيجة ، وقد

(١) الرعدة من الخوف أو البرد (٢) حسام منصل مخرج من قرابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أكثر الشاعر من ذكرها في ديوانه ، ويقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار: ان عين الفيجة تخرج من مكان تحت حصن عزتا فلعلها هي التي يتغزل بها الشاعر.

وقال : في روضة (بالنيربين) أريضة رضعت أفاويق السحائب حُفَّلا
أنى اتجهت رأيت ماءً سابحاً متدفقاً او يانعاً متهدلا
وكأنما أطيارها وغصونها نغم القيان على عرائس تجتلى
وكأنما الجوزاء ألقت زهرها فيها وأرسلت المجرة جدولا
ونير معتل النسيم بروضها فتخال عطاراً يحرق مندلا

وقال فتيان الشاغوري يصف أصول أنهار دمشق ويستفتح ببردى ، وهو من أهل القرن السابع :

كأن طيور الماء فيه عرائس حُجلين على شاطيه خضر الغلائل
اذا كرعت فيه تيقنت أنها تزق فراخاً وهي زغب الحواصل
وكم سمك فيه عليه جواشن من التبر صيغت وهو بادي المقاتل
جريح بأطراف الحصا فخريره أنين له من جس تلك الجنادل
اذا قابل النهر الدجى بنجومه أرانا بقعر الماء ضوء المشاعل
تغلغل في الوادي فوافى كقينة منعمة حسناء ليست بعاطل
فعانقها حتى انثنت مشعلة تقل على ظهر الصفا بطن حامل

قال ياقوت وكان حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي يذكر (جلق) ويصف كثيراً من نواحيها ، وجلق كحمص بكسرتين مشددة اللام وكقنب دمشق او غوطتها .

ومن أجمل ما ورد فيه اسم جلق من الشعر القديم ابيات لأبي فراس طراد بن علي السلمي الدمشقي المتوفى سنة اربع وعشرين وخمسمائة وهي :

يا نسيماً هبَّ مسكاً عبقاً هذه أنفاس رَيَا [1] جلقا

(١) الريا الريح الطيبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كفَّ عني والهوى ما زادني برد أنفاسك الا حُرَقا
ليت شعري نقضت أحبابنا يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا رياح الشوق سوقي نحوهم عارضاً من سحب عيني غَدِقا
وانثري عقد دموع طالما كان منظوماً بأيام اللقا

ذكر الصلاح الكتبي ان هذه الابيات اشتهرت وغنى بها المغنون، وروي عن بعضهم انه مرَّ يوماً ببعض شوارع القاهرة وقد ظهرت جمال كثيرة حُمولتها تفاح فتحي من الشام فعبقت روائح تلك الحمول فأكثر التلفت لها، وكانت امامه امرأة، ففطنت لما داخله من الاعجاب بتلك الرائحة فأومأت اليه وقالت: هذه أنفاس ريا جلقا.

ومن قصيدة وازن بها عرقلة قصيدة أبي نواس (أجارة بيتينا أبوك غيور) مدح بها صلاح الدين يوسف بن أيوب وقصده بها الى مصر كما فعل أبو نواس في قصيدة الخصيب جاء فيها.

عسى من ديار الظاعنين بشير ومن جور أيام الفراق مجيرُ
لقد عيل صبري بعدهم وتكاثرت همومي ولكن المحب صبور
وكم بين اكناف (الثغور) متيم كئيب غزته أعين وثغور
وكم ليلة (بالماطرون) قطعتها ويوم الى (الميطور) وهو مَطير
سقى الله من (سطرا) و(مقرا) منازلاً بها للندامى نضرة وسرور
ولازال ظل (النيربين) فانه طويل ويوم المرء فيه قصير
ويا (بردى) لازال ماؤك بارداً وماء الحيا من حافتيك نمير
أبى العيش الا بين اكناف جلق وقد لاح فيها أشمس وبدور

وقال عرقلة أيضاً:

أما دمشق فجنات مزخرفة للطالبين بها الولدان والحورُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما صاح فيها على أوتاره قمر إلا وغناه قمري وشحرورُ
يا حبذا ودروع الماء تنسجها أنامل الريح الا أنها زور

وقال :

تؤرّق ورقُ الغوطتين لواحظي ويحل جسمي حب غزلان (جاسم)[1]
أأحبابنا ان كنتم قد عزمتمو على البعد من أطلالكم والمعالم
فلا ترسلوا برقاً الى غير ساهر ولا تبعثوا طيفاً الى غير نائم

وقال :

دمشق حبيت من حي ومن نادي وحبذا حبذا واديك من وادي
يا رائحاً غادياً عرّج على بردى وخلني وحديث الرائح الغادي
كم قد شربت به من ماء دالية في ظل دالية تنبيك عن عاد
في جنب ساقية من كف ساقية كادت تثنى بقد غير ميّاد
لها بعيني اذ ماست معاطفها جمال مياسة في عين مقداد

وقال ابن الدهان الموصلي من قصيدة

نشوى تغنى لها ورق الحمام على أوراقها ويد الأنواء تسقيها
صفالها الشرب فاخضرت أسافلها حتى ضفا الظل وابيضت أعاليها
وصفق النهر والاغصان قد رقصت فنقطته بدُرّ من تراقيها
كأنما رقصها أوهى قلائدها وخانها النظم فانثالت لآليها
واعين الماء قد أجرت سواقيها والأعين النجل قد حارت سواقيها
وقابل الغصن غصن مثله وشدت أقمارها فأجابتها قماريها

ومنها :

سماء دوح ترد الشمس صاغرة عنا وتبدي نجوماً في نواحيها
ترى البدور بها في كل ناحية ممدودة للنجوم الزهر ايديها

(١) جاسم من قرى حوران ينسب إليها ابو تمام الشاعر العظيم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا الغصون هززناها لنيل جنىً صارت كواكبها حصباء ارضيها
من كل صفراء مثل الماء يانعة تخالها جمر نار في تلظيها

وقال عين بصل الحراني من قصيدة :

اما ترى الأرض اذ أبكى السحاب بها آذارها ضحكت اذ جاء نيسانُ
والزهر كالزهر حياه الحيا فبدت في الروض منه الى الأبصار ألوان
زمرّد قضب فيها مركبة جواهر ويواقيت ومرجان
كأنما الورد خد الحب حين غدا له العذار سياجاً وهو ريحان
كأن منثورها اذ لاح مبتسماً جيش من الروم بانت منه صلبان
كأنما البان اهدى المسك حين بدا فعطر الكون لما أورق البان
كأن ريح الصبا طافت بخمر هوى من الرياض فكل الكون نشوان
كأنما حمرة التفاح خدّ رشا لي في هواه عن السلوان سلوان
كأن نارنجها نار وباطنه ثلج وفيه لجين وهو عقيان
والطير تُطرب بالعيدان نغمتها ما ليس يطرب بالأوتار عيدان
أبدت فنوناً فأفنت صبر سامعها بالنوح اذ حملتها فيه افنان
بلابل هيجت منا بلابلنا وهاج منا صبابات واشجان

وقال مجد الدين الاربلي يتشوق الى دمشق من قصيدة :

مواطنُ فيها [السهم] سهمي فكلنا نحث مطايا اللهو فيه ونُعنقُ
كلا جانبيه معلم بمجمد من الماء في اطلاله يتدفق
اذا الشمس حلت بينه فهو مذهب وان حجبتها دوحه فهو أزرق
وان فرّج الأوراق جادت بنورها فرَقم[1] أجادته الاكف منمق
أطل عليه قاسيون كأنه غمام معلى او لغام معلق

(١) الرّقم ضرب مخطط من الوشي او الخز او البرود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تسافر عنه الشمس قبل غروبها وترجف اجلالاً له حين تشرق
وتصفر من قبل الأصيل كأنها محب من البين المشتت مشفق
وفي (النيرب) المرموق للبر سالب من النظر الزاهي وللبر مونق؟
بدائع من صنع القديم ومحدث تأنق فيه المحدث المتأنق
رياض كوشي البرد تزهو بحسنها جداولها والنور بالماء يشرق
فمن نرجس يخشى فراق فريقه ترى الدمع في أجفانه يترقرق
ومن كل ريحان مقيم وزائل تضاعف رياه الرياح فيعبق
كأن قدود السرو فيه موائساً قدود عذارى ميلها يترقرق
اذا ما تداعت للتعانق صدها عيون من النوّر المفتح ترمق
وقصر يكل الطرف عنه كأنه الى النسر نسر في السماء محلق
زها ببديع الوشي حسناً كأنما مدبّج روض في نواحيه ملصق
وكم جدول جار يطارد جدولاً وكم جوسق عال يوازيه جوسق
وكم بركة فيه تضاحك بركة وكم قسطل في الماء للماء يدفق
وكم منزل يغشى العيون كأنما تألق فيه بارق يتألق
وفي (الربوة) الشماء للقلب جاذب وللسمع اصمات وللعين مرمق
فهام بها الوادي ففاضت عيونه فكل قرار منه بالدمع يملق
تكفل من دون الجداول شربها (يزيد) يصفيه لها ويصفق
اذا أشرف الولدان من شرفاتها رأيت بدوراً في بروج تألق
وفي (بردى) مغنى يشوق ومنظر يروق ومأوى للسرور ومطرق
اذا أنت من أعلاه اشرفت ناظراً تجيل عنان الطرف فيه وتطلق
رأيت به بحراً من الدوح مزبداً وغدرانه حيتانه منه ترمق
تميل مع الأفنان فيه كأنها نشاوى وما دار الرحيق المعتق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتعطف اعطاف الغصون حمامة اذا ما تغنت والغدير يصفق
وتجمع فيه كل حسن مفرق وشمل الأسى عن حاضريه مفرق
كأن رياض الغوطتين جنوده يقسم فيها جوده ويفرق

وهكذا اجاد وأطال وذكر المزة وسطرا ومقرا وبيت ابيات وجسرين وتل راهط وبعض شوارع دمشق وجامعها توفي سنة ٦٩٧

وقال ابن الصائغ العروضي (٧٢٢ هـ) يتشوق الى عاصمة الغوطة ايضاً ويذكر أرياضها ورياضها بدأها بقوله :

لي نحو ربعك دائماً ياجلق شوق أكاد به جوىً أتمزق

الى ان قال مخاطباً دمشق :

ولكم أُحدث عنكِ من لاقيته وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض في عرض وطول دائماً لم يحو مثلك غربها والمشرق
لله (وادي النيربين) وظله لا (الرقمتين) و(رامة) و(الأبرق)[1]
وسقى ديار (الصالحية) وابل يهمي على تلك المنازل مغدق
و (السهم) ماافترت ثغور أقاحه الا ودمع سحابه يترقرق
كم فيه من قصر منيف مشرف يبدو به قمر منير مشرق
(وبيت لهيا) لا تعداه الحيا طلل عليه من النضارة رونق
هو منزل آثاره مشهورة ولأهله عهد عليّ وموثق
وحباك يا أطلال (جوبر) واصلا غيث مريع مستهل مشفق
لله مسرحة[2] ذلك الربع الذي قلبي يهيم به وذاك الجوْلق[3]

(١) الابرق في اللغة والبرقاء حجارة ورمل مختلطة وكذلك البرقة وهي عدة اماكن تضاف الى امكنة أخرى . ورامة منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة الى مكة وفيها جاء المثل : تسألني برامتين سلجما . والرقمتان تثنية الرقمة وهو مجتمع الماء في الوادي والرقمتان روضتان احداهما قرية من البصرة والأخرى بنجد .

(٢) السرح شجر عظام اوكل شجر لا شوك فيه او كل شجر طال (القاموس) (٣) الشوك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والوادي الشرقي لا برحت به ديم تسح ووبلها يتدفق
فغياضه ورياضه كعيونه هذا يعوم به وهذا يغرق
ولكم قطعت به زماناً لم أزل أشتاقه ما دمت حياً أُرزق
في سكر (زبدين) الى (جسرين) كم حيا الحيا حيّاً عليه رونق
فالواديان كلاهما الغربي والـــشرقي نزهة من برفق يرمق
أنى اتجهت رأيت دوحاً ماؤه متسلسل يعلو عليه جوسق
و (القصر) و(الشرفان) و(الشقراء) (والميدان) عشقاً للذي لا يعشق
فلكم حوت تلك المنازل صورة فيها الجمال مجمع ومفرق
فمخضب ومؤزر ومعمم ومزنر ومبرقع ومقرطق
كم من غزال بالنفوس متوج وقضيب بان بالعيون ممنطق
والريح تكتب والجداول أسطر خط له نسخ الربيع محقق
والطير يقرأ والنسيم مردد والغصن يرقص والغدير مصفق
ومعاطف الأغصان أثنتها الصبا طرباً فذا عار وهذا مورق
وكأن زهر اللوز أحداق الى الزوار من خلل الغصون تحدق
وكأن أشجار الرياض مرادق في ظلها من كل لون نُمرق[1]
والورد بالألوان يحلو منظراً ونسيمه عطر كمسك يعبق
فبلابل منها تهيج بلابلاً وكذاك أثواب الشقيق تَشقق
وهزاره يصبو الى شحروره ويجاوب القمريّ فيه مطوق
وكأنما في كل عود صادح عود حلا مزمومه والمطلق
والوُرق في الأوراق يشبه شجوها شجوي وأين من الخليّ الموثق
تتلو على الاغصان اخبار الهوى فيكاد ساكن كل شيء ينطق

(١) النمرُق والنمرقة مثلثة الوسادة الصغيرة والنمرقة بالكسر من السحاب ما كان بينه فتوق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أجمل ما يروى في ادب الغوطة قصيدة عبد المنعم الجلياني الأندلسي شاعر صلاح الدين ، وكان نظم فيه عشرة دواوين قال :

عهود ليلى وما ضمت لياليها ... أهدت جديد صباباتي بواليها
لا تقدحي في ضنا جسمي معاتبة ... فشعل أعضائه الأنفاس توريها
أيام جلق والأهواء مسعدة ... ونضرة العيش تنهيها مباديها
في الغوطة الغبطة الممدود نعمتها ... أرواح جنة عدن في نواحيها
جلنا بأعطافها نرعي نواظرنا ... منادحاً يزع الأوصاب زاهيها
حتى استقلت بنا وخادة رُسم ... مضمرات غليظ قلب حاديها
يفري المهامه مما استصرخت فرَقاً ... أجاب داعيها أو خاب راعيها
بطاويات الفلا ثقلاً حقائبها ... ورامياتُ الدجى خفاً هواديها
كأن من بمطاها في ذرى قزح ... في كفه النسق الثامي بثنيها
اذا وخدن فما تنحاز أرجلها ... وان زملن فما تمتاز أيديها
شتى المطالب جمع في مساربها ... قصوى المنازل دنيا في مساريها
وردن مصر فأبقت من تذكرها ... دمشق ناراً نواريها فنوريها
ويومنا والمنى تعطي أعنتها ... طوع القياد وتجني حب جانيها
والمرج كالعين والأنهار ادمعها ... وظل شجرائها جفن يغشيها
كأنه ثبج[1] يحوي زمردة ... أو طرف زرقاء مكحول مآقيها
للطرف والطرف في ميدانه نزهٌ ... تأتي النفوس له مرضى فيشفيها
تُرخي الضحى والعشايا وسطه عَذَباً ... تعلو الظهيرة فوضاها فتزويها
ونحن نرفل في ثني ملاءته ... مقلصاً ذيلها طوراً ومضفيها
أنسيننا ذات خلخال تجول به ... ولا يجول ويجلوه تثنيها
شق الحياة مزاج الروح جائلة ... في رُوعه فمعانيه معانيها

(١) امالي الامواج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لو لم يشق حسنها شاقت جبلتها ... قبل التلاقي تلاق في مبانيها
تجر للدّل ذيلاً في ترقبها ... وتشعر الشمس ليلاً في تراقيها
وما نسيت فلا انسى عشيتنا ... (بالنيربين) وقد رقت حواشيها
للآبنوس على الغيطان راصعة ... من الاصيل وعاجًا في روابيها
وساجع غرد في يانع خضل ... ترتج قضبانه أنى يغنيها
وقفت بين سماءين الكواكب من ... فوقي وتحتي نجوم لست أحصيها
من كل زاهرة غضراء باهرة ... تفرق الحسن نهبًا في نواحيها
قد قوّف الناجم النامي أسافلها ... وزخرف الساجم الهامي أعاليها
وأزهرت فبرت حسني ديابجها ... واثمرت فمرت اسنى أياديها
وصافح الكرمة التفاح معتنقًا ... فاحمر نشراً لما تطوي دواليها
والورد خجلان من ضحك البهارله ... والظلّ يغضبها طوراً ويرضيها
والحمل شهب بأفق القضب طالعة ... والياسمين سحاب فوق أرضيها
كم سطرت فيه كف الصنع من حكم ... بقرا بها أثر الابداع قاريها
من نظم مشتبه في جيد مختلف ... يسقى بمتحد شتى مجاريها
السارحون جدام في مناشرها ... والسائحون مدام في مطاويها

* * *

وليلة الربوة الشماء معلمة ... حتى الصباح بروح الذكر نحييها
مأوى ابن مريم في مسرى سياحتها ... قد بوركت بمعانيه مغانيها
تحفها سبعة لو سُد مسربها ... لطم شامخة الآطام طاميها
كأنها الحجر الملقى عصاه به ... موسى ففجر للأسباط جاريها
كأنها درة أضحى (يزيد) لها ... خيطا بلبات آكام تواليها
مَعينة بجبار يلتطمن بها ... مُعينة لخيار أخبتوا فيها

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصخرة المزة الغراء ناطحة قرن الغزالة في مبدا تجليهـا
محلة السفح ما شيب السفوح بها بل مثل ما روّق الصهباء ساقيها
يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحل الوبا أطراف ثاويها
ان الهواء اذا رقت مناسمـه في بلدة لطفت أخلاط أهليها
واذكر ضحى الشرف الاعلى اذا طلعت ذكاء من أفق أشجار تواريهـا
ومنظراً يستبي الألباب رائعه ويشغل النفس عن أشهى أمانيها
يرنو الى بردى ينساب في بَرَد في بُردتي سندس خضر حواشيها
تكسر الماء بلوراً وراكده كالفضة الحوق[1] مصقول عواليها
وحيث شئت فأشجار تمد على ال أنهار ظلاً يغشي من يوافيها
فكل صورة أنس في منازلها وكل نزهة نفس في روابيها
لولا أمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وقال في وصف الغوطة امير الشعراء احمد شوقي من المعاصرين من قصيدة :

آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها الارض دار لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بردى) كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحور في (دمر) اوحول (هامتها) حور كواشف عن ساق وولدان
و (ربوة) الواد في جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان
وأقلبت بالنبات الأرض مختلفاً أفوافه فهو اصباغ والوان
وقد صفا (بردى) للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن افنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذيال وأردان

(١) الحوّق من حاق الشيء يحوقه : دلكه وملسه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلفت (لبنان) جنات النعيم وما نُبئت أن طريق الخلد لبنان

سيداتي سادتي

هذا ما امكن التقاطه من ادب الغوطة ومن استقصى اكثر مما استقصيت يسقط على شعر كثير في هذا الباب ربما كان ما كتب لي جناه احط مما يجنيه الباحث اليقظ . وهذا ما عرفته مما يفيد ترداده في الغوطة وخيراتها وحسناتها جعل الله أيامكم كأيام الربيع في الغوطة .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net